

| | |
|-------------------|---|
| العنوان: | الآراء الأصولية للإمام ابن حزم الظاهري وما أنبنى عليها من الفروع الفقهية ، 383 - 456هـ |
| المؤلف الرئيسي: | ساعد، الصادق الصديق محمد أحمد |
| مؤلفين آخرين: | محمد، التجاني أبو بكر علي(مشرف) |
| التاريخ الميلادي: | 2008 |
| موقع: | أم درمان |
| الصفحات: | 1 - 483 |
| رقم MD: | 560752 |
| نوع المحتوى: | رسائل جامعية |
| اللغة: | Arabic |
| الدرجة العلمية: | رسالة دكتوراه |
| الجامعة: | جامعة أم درمان الاسلامية |
| الكلية: | كلية الشريعة والقانون |
| الدولة: | السودان |
| قواعد المعلومات: | Dissertations |
| مواضيع: | أصول الفقه، الظاهري، ابن حزم، ت 456هـ، الآراء الاصولية، الفقه الاسلامي |
| رابط: | http://search.mandumah.com/Record/560752 |

لإستشهاد بهذا البحث قم بنسخ البيانات التالية حسب إسلوب الإستشهاد المطلوب:

إسلوب APA

ساعد، الصادق الصديق محمد أحمد، و محمد، التجاني أبو بكر علي. (2008). الآراء الأصولية للإمام ابن حزم الظاهري وما أنبنى عليها من الفروع الفقهية ، 383 - 456هـ (رسالة دكتوراه غير منشورة). جامعة أم درمان الإسلامية، أم درمان. مسترجع من <http://560752/Record/com.mandumah.search/>

إسلوب MLA

ساعد، الصادق الصديق محمد أحمد، و التجاني أبو بكر علي محمد. "الآراء الأصولية للإمام ابن حزم الظاهري وما أنبنى عليها من الفروع الفقهية ، 383 - 456هـ" رسالة دكتوراه. جامعة أم درمان الإسلامية، أم درمان، 2008. مسترجع من <http://560752/Record/com.mandumah.search/>

الباب الأول

عصر وحياة الإمام ابن حزم الظاهري

وفيه ثلاثة فصول

الفصل الأول : عصر الإمام ابن حزم سياسياً

واجتماعياً وعلمياً.

الفصل الثاني : حياة الإمام ابن حزم الشخصية.

الفصل الثالث : ما امتاز به الإمام ابن حزم.

الفصل الأول

عصر الإمام ابن حزم سياسياً واجتماعياً وعلمياً

وفيه ثلاثة مباحث

المبحث الأول : الحالة السياسية.

المبحث الثاني : الحالة الاجتماعية.

المبحث الثالث : الحالة العلمية والفكرية.

المبحث الأول

الحالة السياسية لعصر الإمام ابن حزم

وفيه ثلاثة مطالب

المطلب الأول: الخلافة والخلفاء في الأندلس.

المطلب الثاني: الخلفاء الذين عاصروهم وعاش معهم.

المطلب الثالث: اعتزاله للسياسة.

المطلب الأول

الخلافة والخلفاء في الأندلس

الوضع السياسي له تأثير كبير على العلماء ، فالحالة السياسية في الأندلس في مطلع القرن الخامس الهجري كالشمس حين غروبها ، أو كنجم أفل بعد أن لاح بضيائه في كبد السماء ، وبعد طول عزٍ ومجدٍ سقطت شجرة الخلافة ، ووقع الخلاف ، وطمع الأوباش في الحكم .

فوجد أن الفترة التي عاش فيها الإمام ابن حزم كانت بداية الانهيار الكبير ، فقد بدأت الخلافة في الأندلس من إعلان "عبد الرحمن الناصر" (١) الخلافة الأموية بالأندلس عام ٣١٦هـ حتى ٤٠٠هـ) وهو عهد ملوك الطوائف ، والذي امتد إلى عام ٤٨٤هـ ، وقد وقعت في هذه الفترة حوادث يشيب منها الولدان ؛ وإليك صورة منها (٢) في عام ٣٥٠هـ توفى "عبد الرحمن الناصر" أول الخلفاء الأمويين وأعظمهم ، وقد دامت خلافته نصف قرن من الزمن بلغت بلاد الأندلس فيها الذروة من العز والسؤدد والرفعة فقد قضى على الاضطرابات السائدة ؛ وأدب الخارجين عليه ؛ وقهر أعداءه وأرهب الأسبان ، فعم الرخاء والأمن أرجاء الأندلس وما تبعه من المغرب ، ثم تولى من بعده ابنه "الحكم" وتلقب "بالمُنْتَصِر بالله" (٣) وسار على سيرة أبيه ، وفي عام ٣٦٦هـ توفى "الحكم" ولم تطل مدته كأبيه ، وبوفاته انقضى العصر الذهبي للأندلس وبدأ عصر الفوضى والاضطراب ؛ والتغلب على الخليفة ، وتولى من بعده ابنه هشام ولقب "بالمؤيد" (٤) وكان صغيراً مناهزاً للحلم ، مما مكن حاجبه محمد بن أبي عامر أن يستبد بالحكم والدولة وتلقب "بالمُنْصُور" (٥) وحجر على الخليفة ، فضبط الأمور بقوة شخصيته ودهائه فنجح في السيطرة على مقاليد الأمور ورسم لنفسه خطة بارعة

(١) عبد الرحمن بن محمد بن عبد الله تسمى بأمير المؤمنين ، وتلقب بالناصر لدين الله ، وكان يكنى أبا المطرق ، صارت جميع أقطار الأندلس في طاعته توفى عام ٣٥٠هـ انظر جذوة المقتبس للحميدي (١٢ - ١٣) .

(٢) انظر تاريخ ابن خلدون (١٨٥/٥) .

(٣) الحكم بن عبد الرحمن بن عبد الله ، تولى وعمره سبع وأربعين سنة تكنى أبا العاص توفى عام ٣٦٦هـ انظر جذوة المقتبس (١٣ - ١٦) .

(٤) هشام بن الحكم بن عبد الرحمن بن عبد الله تولى وعمره عشرة سنوات يكنى أبا الوليد ، قتل في شوال ٤٠٣هـ . انظر الجذوة ١٧ .

(٥) المنصور محمد بن أبي عامر ، أبو عامر ، أمير الأندلس في دولة الخليفة هشام المؤيد تلقب بالمنصور فكانت مدته في الإمارة بضعاً وعشرين سنة ، توفى ٣٩٩هـ ، انظر بغية الملتبس في تاريخ رجال أهل الأندلس للضببي ١١٥ - ١١٧ .

للقضاء على الخصوم والمنافسين ، فأجبر الأندلسيين على الخضوع لهذه الحكومة العسكرية الاستبدادية التي اعتمدت في تكوينها على عناصر من غير العرب واتخذ الوزراء وكان منهم أحمد بن سعيد والد الإمام ابن حزم ، ونفذت الكتب والمخاطبات والأوامر باسمه وأمر بالدعاء له على المنابر عقب الدعاء للخليفة ومحا رسم الخلافة بالجملة ولم يبق لهشام المؤيد من رسم الخلافة أكثر من الدعاء له على المنابر وكتب اسمه في السكة ، وقد كان من نتائج هذه السياسة الإرهابية أن أضمرت نيران الفتنة بعد وفاته بزمان قليل ولم تتطفي إلا بعد أن قضت على الإسلام في الأندلس وكانت الأحوال طوال أيام حجابته على ما كانت عليه في عهد الحكم المستنصر فحمى الثغور وساد الأمن بلاد الأندلس وهو من أعظم السلاطين دهاءً وحزمًا وهيبَةً في القلوب ، فكان يجهز الجيوش ويفزو بنفسه حتى إن غزواته تجاوزت الخمسين غزوة في سائر أيام ملكه ولم تنكس له راية ولا أفل له جيش وما أصيب له بعث وما هلك له سرية إلي أن توفي عام ٣٩٢هـ وقد دامت أيامه سبعة وعشرين سنة. فتولى من بعده ابنه عبد الملك وتلقب "بالمظفر" (١) فجرى على سنن أبيه في السياسة والغزو فكانت أيامه أعياداً وحكم سبع سنين ثم تولى من بعده أخوه "عبد الرحمن بن محمد" (٢) عام ٣٩٩هـ وتلقب "بالناصر لدين الله" وجرى على سنن أبيه وأخيه في الحجر على الخليفة هشام والاستبداد عليه ثم ثاب له رأي في الاستئثار بما بقي من رسوم الخلافة فحمل الخليفة المستضعف هشاماً المؤيد على العهد له بالخلافة بعده ، فنقم عليه أهل الدولة ذلك وثار تائراً الأمويين والمضريين وكانت فتنة خلع فيها "هشام المؤيد" وسجن ، وبايعوا "محمد بن هشام بن عبد الجبار" (٣) ولقبوه "بالمهدي" ، وقبض على "الناصر" ، وذهبت دولة العامرية عام ٣٩٩هـ ، ولكن بعد أن فقدت الخلافة الأموية هيبتها ومكانتها عام ٤٠٠هـ ، ثار الجند من البربر على الخليفة "المهدي" ، وبايعوا "سليمان بن الحكم" (٤) الملقب "بالمستعين بالله" ، واستعانوا

(١) عبد الملك بن محمد أبي عامر الملقب "بالمظفر" أمير الأندلس بعد أبيه توفي في سنة ٣٩٩هـ ، انظر بغية الملتبس ٣٧٣ - ٣٧٤ للضبي .

(٢) عبد الرحمن بن محمد بن أبي عامر ، الملقب بالناصر ، الأمير بعد أخيه عبد الملك ، توفي مقتولاً في رجب ٣٩٩هـ قتله محمد بن هشام وصلبه . انظر بغية الملتبس (٣٥٦).

(٣) محمد بن هشام بن عبد الجبار بن عبد الرحمن الناصر ولي عام ٣٩٩هـ ويكنى أبا الوليد قتل بعد ستة عشر شهراً من ولايته ، كانت ولادته عام ٣٦٦هـ . انظر الجذوة ١٨ - ١٩ .

(٤) سليمان بن الحكم بن سليمان بن الناصر ، تولى الخلافة يوم الجمعة ٦ شوال ٣٩٩هـ ودخل قرطبة عام ٤٠٠هـ وتلقب "بالمظفر" و"بالمستعين" ثم خرج من قرطبة حتى دخلها في شوال ٤٠٣هـ وحكم سبع سنوات - قتل على يد "علي بن حمود" عام ٤٠٧هـ ، انظر جذوة المقتبس "١٩" ..

"بالنصارى" فدخلوا "قرطبة" فهلك من خيار الناس وأئمة المساجد الكثير، ولكن في نفس العام استطاع الخليفة "المهدي" وبمعونة "النصارى" أيضاً أن يدخل "قرطبة" ويطرد "البربر" ومعهم "المستعين بالله".

وفي ذي الحجة ٤٠٠ هـ ثار الناس على "المهدي" وقتلوه واجتمعوا على تجديد البيعة للخليفة المخلوع "هشام بن الحكم" (١) "المؤيد" ونصبوا "المستعين بالله" خليفة، وتوثب البرابرة والعبيد على الأعمال، فحكموا المدن العظيمة، فصار الملك طوائف منذ عهد هذه الفتنة، فبدأت المهازل تترى بين المقاتلين على الإمارة واستقل كل منهم بإقليم.

وفي تلك الأيام المملوءة بالفتن والاضطرابات السياسية نهض خيران العامري حاكم المرية وكاتب الأدارسة وحرص على قتل المستعين حتى جاء "على بن حمود العلوي" (٢) من الأدارسة وفتح قرطبة عام ٤٠٧ هـ وقتل المستعين وتلقب بالناصر وبدأت دولة العلويين، فأحس خيران خيفة من ابن حمود فسعى سراً ليعيد الأمر إلى الأمويين بعد أن سعى قبل ذلك بخروجه منهم، وظهر عبد الرحمن بن محمد بن عبد الملك بن الناصر ببنايسية فبايعه أكثر أهل الأندلس وتلقب "بالمترضى" وذلك سنة ٤٠٨ هـ وقد قدم عليه الإمام ابن حزم فاتخذه وزيراً له وقد سار "المترضى" ومعه الإمام ابن حزم بجيشه الذي يضم خيران العامري وصاحبه "المنذر بن يحيى" إلى قرطبة لحرب بني حمود ولكن وقفت أمامهم جيوش "غرناطة" وانتهت بهزيمة "المترضى" لخيانة وقعت من "خيران" وصاحبه ووقع الإمام "ابن حزم" في الأسر ثم أطلق سراحه ونجا المترضى بنفسه وقت الهزيمة ولكن دس عليه "خيران" من قتله غيلة وكان ذلك سنة ٤٠٩ هـ، فاستمر الأمر في قرطبة بيد بني حمود تعاقبه علي بن حمود، القاسم بن حمود، يحيى بن علي، وفي عام ٤١٤ هـ ثار أهل "قرطبة" على "بني حمود" واتفقوا على رد الخلافة إلى "بني أمية" فبايعوا "عبد الرحمن بن هشام بن عبد الجبار" (٣) ولقبوه "بالمستظهر"، وكان الإمام ابن حزم من المؤيدين له فأصبح من وزرائه مع غيره من وزراء بني أمية القدامى وكان المستظهر لبغاً ذكياً وأديباً لم يكن في بيته يومئذ أبرع

(١) تقدمت ترجمته ص ٤ بالرقم "٤".

(٢) علي بن حمود بن ميمون بن أحمد بن علي بن عبد الله بن عمر بن إدريس تولى عام ٤٠٧ هـ وتسمى بالخلافة، وتلقب بالناصر، قتله صقالبة له في الحمام عام ٤٠٨ هـ، انظر جذوة المقتبس للحميدي.

(٣) عبد الرحمن بن هشام بن عبد الجبار، بويج بالخلافة في رمضان عام ٤١٤ هـ وله اثنتان وعشرون سنة، تلقب بالمستظهر ويكنى أبا المطرف وكان في غاية الأدب والبلاغة والفهم ورقة النفس، قتل عام ٤١٤ هـ في ذي القعدة انظر الجذوة ٢٥.

منه منزلةً وكان قد نقلته المخاوف وتقاذفت به الأسفار فتحنك وتخرج وتمرن فيها ، وبعد شهرين من ولايته ثار عليه "محمد بن عبد الرحمن بن عبد الله بن الناصر" (١) والعامة وفتكوا به وبويع "لمحمد" وتلقب "بالمستكفي" ، وقتله عام ٤١٤هـ واستقل بأمر قرطبة ، ثم بعد ستة عشر شهراً من بيعته رجع الأمر إلي "يحيى بن علي بن حمود" (٢) عام ٤١٦هـ ، ثم بدأ لأهل قرطبة فخلعوا المعتلي بن حمود سنة ٤١٧هـ ، وبايع عميد الجماعة "أبو محمد" "جهور" (٣) "لهشام بن محمد بن عبد الملك" (٤) وتلقب "بالمعتد بالله" وفي عام ٤١٨هـ وكان بالشعر ولم ينزل دار الخلافة إلا في آخر سنة ٤٢٠هـ ، وكان من وزرائه الإمام ابن حزم ولكن لم تطل مدته إذ خلعه الجند سنة ٤٢٢هـ ونودي في قرطبة بالألا يبقى فيها أحد من بني أمية وبانتهاء المعتد بالله انتهت حياة الإمام ابن حزم الوزارية ، وكان عمره ثلاثين عاماً (٥) فتفرغ للعلم والتحقيق (٦).

(١) محمد بن عبد الرحمن بن عبد الله ولي وله ثمان وأربعون عاماً ولد عام ٣٦٦هـ طرد من قرطبة ومات مقتولاً . انظر الجذوة ٢٦.

(٢) يحيى بن علي بن حمود بن ميمون بن أحمد ، كنيته أبو محمد ، أو أبو القاسم ، تسمى بالخلافة "بقرطبة" عام ٤١٣هـ بعد أن ثار على عمه القاسم ، هرب من "قرطبة" عام ٤١٤هـ ، قتل عام ٤٢٠هـ انظر الجذوة ٢٤.

(٣) جهور بن عبد الله بن محمد كان من وزراء الدولة العامرية تكنى أبا محمد توفى عام ٤٣٥هـ انظر الجذوة ٢٧/١٨٨.

(٤) هشام بن محمد بن عبد الملك بن عبد الرحمن الناصر ، أبوبكر أخو المرتضى تلقب بالمعتد بالله كان مولده عام ٣٦٤هـ خلعه الجند عام ٤٢٠هـ وبقي معتقلاً إلى أن مات عام ٤٢٧هـ انظر الجذوة ٢٨.

(٥) انظر سير أعلام النبلاء ١٨ - ١٨٨.

(٦) معجم الأدباء ١٢/٢٣٧.

المطلب الثاني

الخلفاء الذين عاصروهم وعاش معهم بالأندلس

كان أحمد بن سعيد أحد العلماء من وزراء المنصور محمد بن ابن عامر ووزراء ابنه المظفر بعده والمدير لدولته ، وكان من أنصار الدولة العامرية وعاون المنصور العامري حتى إذا توفي ٣٩٢هـ عاون من بعده المظفر حتى إذا كانت الاضطرابات التي بدأت ٣٩٨هـ أخذ يعتزل الأمر ، وينصرف عن السياسة 'وقد اضطربت الأمور في قرطبة' فاضطر إلى الانتقال من منازل الجديدة في شرقي قرطبة إلى منازل القديمة في غربيها ' ثم مات ٤٠٢هـ في وسط هذه الاضطرابات المستمرة بسبب النزاع في البيت الأموي والحرب المستمرة بين المتنافس في الملك منهم ' حتى لقد دفعتهم المنازعة بينهم أن يستعينوا بالنصارى الذين يتربصون بهم جميعا الدوائر فاستعان الفريقان بهم فهكذا خسر الفريقان و خسر معهما الإسلام واكتسب خصومه كسباً أخذوه رخيصاً بثمن بخس وهو أن يسكتوا ، وقد أخذ نصراً للمسلمين بالمهج والأرواح .

نشأ الإمام ابن حزم وسط هذا البحر اللجي من الدماء ، وقد كان قوي النزعة ، وكان وفيّاً لهذا البيت وقد رأى آل ذلك البيت يتتأخرون ويأكل بعضهم بعضاً فارتضى لنفسه أن يكف عن نصرة فريق على فريق فنلاحظ بأن الاضطرابات المستمرة في الأندلس عامة وقرطبة خاصة انتهت باستيلاء آل حمود عليها ، وأولئك علويون كان لهم سلطان في " سبته " بالمغرب وبين البيت العلوي والبيت الأموي جاهلية وإسلاما ، الآن قد استولى البيت العلوي على قرطبة وما حولها وصار له سلطان في الأندلس فلا بد أن يتبع الأمويين ومن ينتمي إليهم . وابن حزم هو وأسرته من مواليهم ، ولهم حظوة عندهم ، وكان أبوه من الوزراء ذوي السلطان في دولتهم أو دولة إتباعهم لذلك إتهمه خيران والي المرية من قبل الحموديين سنة ٤٠٧هـ بالعمل للبيت الأموي لإعادة السلطان إليه فماذا قال ابن حزم .

وظهرت دولة الطالبية وبايع بني حمود الحسني المسمى بالناصر _ بالخلافة وتغلب على قرطبة وتملكها ، واستمر في قتاله لجيوش المتغلبين والثوار في أقطار الأندلس ، وفي أثر ذلك نكبني خيران صاحب المرية ، إذا نقل إليه من لم يتق الله عز وجل من البايعين _ وقد انتقم الله منهم _ عني وعن محمد بن إسحاق صاحبي أنا نسعى في القيام بدعوة الدولة الأموية فاعتقلنا عند نفسه شهراً ، ثم أخرجنا على جهة التغريب ، فصرنا إلى حصن القصر ولقينا صاحبه أبو القاسم عبد الله بن هزيل المعروف بابن المقفل فأقمنا عنده شهوراً في خير دار إقامة وبين خير أهل وجيران ،

وعند أجل الناس همة وأكملهم معروفا وأتمهم سيادة^١ ثم ركبنا البحر قاصدين
بلنسية عند ظهور أمير المؤمنين المرتضى عبدالرحمن بن محمد وساكناه (١) .

كان خيران الذي اعتقل ابن حزم ثم نفاه من أشد المعاونين لعبد الرحمن
المرتضى الأموي الذي ذكره ابن حزم في قوله (وذلك لأن خيران نقل إليه أن علي بن
حمود يرد قتله فسبقه هذا بإظهار الخلاف عليه ، وأرسل يسأل عن بني حمود فدل
على عبد الرحمن هذا وكان قد خرج من قرطبة مستخفيا ونزل بمدينة جيان وكان
أصلح من بقي من بني أمية وقد عاونه ابن حزم حتى كان وزيرا من وزرائه) .

لكن الأمر لم يستمر طويلاً فاغتيل المرتضى وانتهى أمره وصار أنصاره عرضة
للاضطهاد والتغريب بل الأسر والتقييد فقد إشتراك الإمام ابن حزم مع عبد الرحمن
المرتضى وسار معه في جيشه يريد الاستيلاء على غرناطة .

وحينئذ يصب ابن حزم ما يصيب كل مهزوم ووقع في يد أعدائه فقد أسر
واستمر في الأسر مدة ، ثم فك إسناره وعاد إلى قرطبة ليرى أطلالها وكان ذلك سنة
٤٠٩هـ بعد أن غاب عنها نحو ست سنين ، يقول رحمه الله _ خرجت عن قرطبة أول
محرم سنة أربع وأربعمئة ، ثم دخلت قرطبة في شوال سنة تسع وأربعمئة (٢) .

ثار أهل قرطبة على علي بن حمود الحسنى وخلعوه واتفقوا على رد الأمر إلى
بني أمية واختاروا لذلك عبد الرحمن بن هشام بن عبد الجبار و بايعوه في رمضان
٤١٤هـ ولقبوه بالمستظهر وقاموا بأمره وكان عمره حين ذاك اثنين وعشرين سنة
وكان رطب الصدر رقيق الطبع شاعراً وناثراً وخطيباً بليغاً (٣)

ولكنه شك كبيكية السلاطين في أهل بيته فاستبد وسجن جماعة من أهل قرطبة
وأخذ أموالهم فثار أهل قرطبة لأجلهم وأخرجوهم من السجن وقتل بعد شهرين من
ولايته .

كان الإمام ابن حزم وزيرا لذلك الخليفة الشاب ولم يدم الأمر له كما لم يدم
من قبل للمرتضى ، وكان نصيب الإمام ابن حزم في هذه الوزارة كنصيبه في الأولى
أو من نوعه ففي الأولى انتهى من الوزارة إلى الأسر وفي هذه المرة انتهى من الوزارة إلى
غيابات السجن .

(١) طوق الحمامة ص ١١٨ .

(٢) طوق الحمامة ص ١١٢ .

(٣) نفح الطيب ج ٤ ص ٤٤ .

كان من المؤمل في الإمام ابن حزم أن يهجر السياسة ولكنه بعد هذا كله
كان وزيراً لهشام المعتد بالله وقد خلع سنة ٤٢٢هـ وهو آخر الأمويين بالأندلس (١)^٧
هذا هو الخليفة الأخير الذي كان الإمام ابن حزم وزيراً له .
نخلص إلي أن الإمام ابن حزم قد عاصر هؤلاء الخلفاء

١ / عبد الرحمن المرتضى

٢ / عبد الرحمن بن هشام

٣ / هشام المعتد

(١) نفح الطيب ج٢ ص ٥٠ .

المطلب الثالث

اعتزاله للسياسة

يقول المقريء : انقطعت الدولة الأموية من الأرض وانتشر سلك الخلافة بالمغرب ، وقام الطوائف بعد انقراض الخلائف وانتزى الأمراء والرؤساء من البربر والعرب والموالي بالجهات واقتسموا خطتها ، وتغلب بعضهم على بعض واستقل أخيراً بأمرها ملوك استفحل أمرهم ، ولادوا بالجزى يدفعونها للطاغية (أي كبير النصارى) .

أن يتظاهر عليهم أو يبتزهم ملكهم ، وأقاموا على ذلك برهة ، حتى قطع عليهم البحر ملك العدو صاحب مراکش أمير المسلمين فجعلهم وأخلى منهم الأرض (١) .

وفي عهد هؤلاء الطوائف الذين كان بعضهم يدفع لطاغية النصارى إتاوة عاش ابن حزم ، ومن أشهر هؤلاء بنو عباد ملوك أشبيلية الذين حرق ثانيهم المعتضد كتب ابن حزم ، ومنهم بنو جهور بقرطبة ، حتى إندعم ملكهم في ملك المعتمد بن عباد ، وغير هؤلاء من ملوك الطوائف كثيرون ، وكان أظهرهم بنو عباد .

هذه حال الأندلس في عصر الإمام بن حزم ، ملك قوي أولاً لم يذقه إلا في نعومة أظفاره ، ثم اضطراب وفتن عكرت صفوة شبابه ثانياً ، ثم انقسام وانتشار للعقد ، وخضوع وصغار لأعداء الإسلام حتى دفعت الإتاوات لطاغية النصارى واستمرت تلك الحال حتى وفاته وليس بعجيب إذن أن ينصرف الإمام ابن حزم عن السياسة ، لقد زهده فيها في شبابه فتن البربر ، واستعانة لمتزعمين بالنصارى ، ولما أراد أن يصلح الأمر بمعاونة بعض الأمراء الأمويين لم يواته الزمان ، فانصرف عن السياسة إلى العلم ، فكان للعلم وحده نحواً من ست وثلاثين سنة .

(١) نفح الطيب ج٢ ص ٥٠ .

والحمد لله الذي كان في علم أذله أن يترك الإمام ابن حزم السياسة حتى ينتفع الناس
بهذه الآثار العلمية التي خلفها وتكون له الكتب النيرة التي كتبها ، ماذا كان
يستفيد الإسلام والمسلمين لو صار الإمام ابن حزم خليفة في الأندلس ؟ هل ما ينتفع به
الإسلام يسامي تلك المنزلة العلمية التي تبوأها .

المبحث الثاني

الحالة الاجتماعية

وفيه ثلاثة مطالب

المطلب الأول : البيئة التي عاش فيها

المطلب الثاني : حالة المجتمع الأندلسي في عصر الإمام

ابن حزم

المطلب الثالث : طبقات الشعب وأجناسه في الأندلس

والطبقة التي ينتمي إليها

المطلب الأول

البيئة التي عاش فيها

لقد أثرت الثورة التي قضت على الأسرة العامرية تأثيراً كبيراً في ظروف أسرة الإمام ابن حزم ، فلقي الإمام ابن حزم وأبوه الوزير من المحن الشيء الكثير، وخاصة بعد أن أعيد "هشام الثاني" (١) إلى العرش في ذي الحجة سنة ٤٠٠هـ في هذه الظروف غادر الإمام ابن حزم في محرم ٤٠٤هـ مدينة "قرطبة" (٢) التي مزقتها الحروب الأهلية ، وبعد أن خرب البربر قصر أسرته البديع "ببلاط مغيث" في الناحية الغربية لقرطبة . ثم اختار مدينة "المرية" (٣) لإقامته فقد استطاع أن يعيش هناك في شيء من الهدوء .

ولكن بعد أن خلع "علي بن حمود" (٤) بالاتفاق مع "خيران" (٥) صاحب "المرية" الأمير "سليمان الأموي" سجن الإمام ابن حزم عدة شهور ، لأن خيران كان يظن بأن الإمام ابن حزم يتآمر لصالح الأمويين ، ثم نفاه بعد ذلك فذهب الإمام ابن حزم إلى حصن "أشبيلية" (٦) حيث تلقاه حاكمها بالترحيب ومكث هناك أشهر قلائل ، ولما علم الإمام ابن حزم أنه نودي - لعبد الرحمن الرابع (٧) بمدينة "بلنسية" (٨) وترك "أشبيلية" واشترك مع جيش المرتضى ، وكان الإمام ابن حزم وزيراً له ، فأسر الإمام ابن حزم ، ولكن بعد فترة قصيرة أطلق سراحه . ثم رجع الإمام ابن حزم إلى "قرطبة" في شوال عام ٤٠٩هـ بعد أن غاب عنها ست سنوات وكانت "قرطبة" تحت إمرة

(١) هشام تقدمت ترجمته ص ٧.

(٢) قرطبة وهي مدينة بالأندلس عظيمة وسط بلادها وكانت سريراً لملكها ، وبها ملوك بني أمية ، بينها وبين البحر خمسة أميال ، وليس في المغرب شبيه لها في كثرة الأهل وسعة الرقعة . انظر معجم الأدباء للحموي ٢٣٧/١٢ .
(٣) المرية من أقطار بالأندلس ، وهي مدينة كبيرة فيها مرفأ ومرسى للسفن ، انظر معجم البلدان لياقوت الحموي (١١٩/٥).

(٤) تقدمت ترجمته ص ٦ رقم (٤).

(٥) ذكر الإمام ابن حزم أن بعض الواشين نقل إلى خيران أن الإمام ابن حزم يتآمر عليه ، انظر طوق الحمامة ١١٨ .

(٦) أشبيلية : مدينة كبيرة وعظيمة ، بها بنو عباد ومقامهم بعد أن خربت "قرطبة" وهي غربها قريبة من البحر ، انظر معجم البلدان (١٩٥/١) لياقوت الحموي .

(٧) عبد الرحمن بن عبد الملك بن عبد الرحمن الناصر تلقب "بالمترضى" بايعه البربر ، وزحفوا على "غرناطة" ثم تخلوا عنه ودسوا عليه من قتله غيلة ، انظر جذوة المقتبس ٢٢ .

(٨) بلنسية مدينة مشهورة بالأندلس وهي شرقي قرطبة ، وأهلها أميز أهل الأندلس ، ويسمون عرب الأندلس ، بينها وبين البحر فرسخ . انظر معجم البلدان .

"القاسم بن حمود" (١) وعندما بويغ الخليفة "عبد الرحمن الخامس" (٢) في رمضان بعد خلع ابن حمود وقد كان عبد الرحمن الخامس صديقاً للإمام ابن حزم تقلد الإمام ابن حزم منصب الوزارة ولكن الفتن السياسية لم تمهل الخليفة والوزير ، فقتل الخليفة في ذي القعدة بعد سبعة أسابيع من توليه ، أصبح الإمام ابن حزم من جديد في السجن في مدينة "شاطبة" (٣) حوالي عام ٤١٨هـ (٤) ، وبعد هذه الفترة اعتزل الإمام ابن حزم السياسة وتفرغ للتأليف والعلم ، فقد بدأ حياته مالكياً ، ثم شافعيّاً متحمساً لمذهبه ، ثم انتقل للظاهرية فكان علماً فيها .

ولما كان الإمام ابن حزم بطبعه ميالاً إلى المناظرة ، نجده أسرف في نقد العلماء على اختلاف مذاهبهم ، وقد شنع وعرض بجهاذة هم موضع إجلال السواد الأعظم من المسلمين مثل الإمام مالك (٥) ، وأبي حنيفة (٦) ، والأشعري (٧). لذلك أصبح محارباً مضطهداً فاستطاع أن يستميل أحمد بن رشيق (٨) وإلى جزيرة ميّورقة (٩) فناصره وكان هذا الرجل مشغولاً بالأدب وعلوم الدين ، وقد احتفى به الإمام ابن حزم عندما اتهمه فقهاء قرطبة وغيرهم بمعارضة مذهب الإمام مالك ، فاستطاع بفضل الله عز وجل ثم احتمائه بهذا الوالي أن يكسب أنصاراً له بهذه

(١) القاسم بن حمود بن ميمون بن أحمد بن علي بن عبد الله الإدريسي تولى بعد أخيه علي بن حمود ، تلقب بالمأمون ، ثار عليه ابن أخيه يحيى بن علي عام ٤١٢هـ فطرده من "قرطبة" ثم دخلها ثانية عام ٤١٣هـ مات عام ٤٣١هـ بعد طول أسر ، انظر الجذوة للحميدي .

(٢) تقدمت ترجمته ص ٧ بالرقم ١.

(٣) شاطبة : مدينة في شرق الأندلس وهي كبيرة وقديمة ، انظر معجم البلدان لياقوت (٢٠٩/٣) .

(٤) انظر دائرة المعارف الإسلامية (١٤٣/١٣٦/١) .

(٥) مالك بن أنس بن مالك الأصبحي الحميري ، أبو عبد الله ، إمام دار الهجرة و إليه تنتسب المالكية ولد عام ٩٣هـ وتوفي عام ١٧٩هـ وكان قوياً في دينه ، بعيداً عن الأمراء والملوك ، تواضع له الرشيد ، وطلب منه المنصور أن يضع له كتاباً للناس يجمعهم عليه فصنف له الموطأ ، انظر الأعلام للزركلي (٢٥٧/٥) وفيات الأعيان (١٣٥/٤ - ١٣٩) .

(٦) النعمان بن ثابت التيمي بالولاء الكوفي ، أبو حنيفة ، إمام الحنفية الفقيه ، المجتهد ، المحقق ، أحد الأئمة الأربعة عند أهل السنة والجماعة ، راوده عمر بن هبيرة على القضاء فامتنع ورعاً ، ثم المنصور فأبى فحبسه إلى أن مات ، كان قوي الحجة ، ومن أحسن الناس منطقاً ، كريماً في أخلاقه ، جواداً حسن المنطق والصورة ، جهوري الصوت قال الشافعي الناس عيال في الفقه على أبي حنيفة . انظر الأعلام (٨ - ٣٦) وفيات الأعيان (٥ - ٤١٥/٤٠٥) .

(٧) الأشعري : علي بن إسماعيل بن إسحاق أبو الحسن ، من نسل الصحابي أبو موسى الأشعري ، مؤسس مذهب الأشاعرة ، كان من أئمة المتكلمين المجتهدين ولد بالبصرة عام ٢٦٠هـ ، تلقى الاعتزال وتقدم فيه ثم رجع وجاهر بخلافه ، توفي عام ٣٢٤هـ . ببغداد له مؤلفات منها "مقالات الإسلاميين" ، "الإبانة في أصول الديانة" انظر الأعلام (٢٦٣/٤) وفيات الأعيان (٢٨٤/٣ - ٢٨٦) .

(٨) أحمد بن رشيق الكاتب أبو العباس ، مال إلى الفقه والحديث وبلغ من رئاسة الدنيا أرفع المنازل ، فكان ينظر في أمور الجهة التي كان فيها نظر العدل وكان يجمع العلماء والصالحين ويؤثرهم . انظر بغية الملتبس (١٨٧) .

(٩) ميّورقة : جزيرة في شرق الأندلس كانت قاعدة ملك مجاهد العامري - انظر معجم البلدان (٥٤٦/٥) .

الجزيرة بين عام (٤٣٠ - ٤٤٠هـ) وقد تناقض الإمام ابن حزم في حضرة ابن رشيق من الفقيه المالكي ابن الوليد سليمان الياجي(١) الذي عاد من المشرق عام ٤٤٠هـ وقد استدعاه أحد فقهاء (مَيُورقة) وهذا الفقيه أجبر الإمام ابن حزم على مغادرة الجزيرة ، فأجبر الإمام ابن حزم أن يعتكف في قريته "منت لشم" وقد أحرقت مؤلفاته "بأشبيلية" جهرة عن طريق المعتضد(٢) فندد بهذا التصرف الأحمق في قصيدة لاذعة ومنها :

فإن تحرقوا القرطاس لا تحرقوا الذي تضمنه القرطاس بل هو في صدري
يسير معي حيث استقلت ركائبي وينزل إن أنزل ويدفن في قبري
دعوني من إحراق رق وكاغر وقولوا بعلم كى يرى الناس من يدري
والا فعودوا في المكاتب بدأه فكم دون ما تبغون لله من ستر
كذلك النصارى يحرقون - إذا علا أكفهم - القرآن من مدن الثغر(٣)

فواصل الإمام ابن حزم في عزلته الدرس والتأليف كما قال ابن حيان(٤)(٥).
وقد كانت ترد على الإمام ابن حزم في عزلته هذه زمرة صغيرة من أصاغر الطلبة لم يخشوا فيه ملامة الفقهاء ، فكان من أعظمهم المؤرخ الحميدي(٦).

(١) سليمان بن خلف بن سعيد النجيبى القرطبي ، أبو الوليد الباجي فقيه مالكي كبير من رجال الحديث ، مولده في "باجة" بالأندلس رحل إلى "الحجاز" وبغداد" والموصل" ودمشق" وعاد إلى "الأندلس" فولى القضاء ، توفى "بالمرية" عام ٤٧٤هـ وكان مولده عام ٤٠٣هـ ومن مصنفاته "السراج في علم الحجاج" ، "إحكام الأصول في أحكام الأصول" ، "شرح فصول الأحكام" . انظر الأعلام (١٢٥/٣) وفيات الأعيان (٤٠٨/٢ - ٤٠٩).

(٢) المعتضد بن عباد بن القاضي أبو القاسم إسماعيل بن عباد اللخمي .

(٣) انظر سير أعلام النبلاء ٨٢٠٥/١٨ ، معجم الأدباء ٢٥٢/١٢ ، نفح الطيب ٨٢/٢ ، لسان الميزان ٢٠٠/٤ .

(٤) حيان بن خلف ، أبو مروان بن حيان ، القرطبي ، وهو من أقدم وأفضل مؤرخي الأندلس ولد عام ٣٧٧هـ وتوفي عام ٤٦٩ . وله كتاب المقتبس في تاريخ الأندلس . انظر دائرة المعارف الإسلامية (١ - ١٤٦) ، وفيات الأعيان (٢١٨/٢ - ٢١٩).

(٥) انظر معجم الأدباء (٢٤٩/١٢) .

(٦) أبي عبد الله محمد بن أبي نصر فتوح بن عبد الله بن حميد الأزدي . انظر وفيات الأعيان (٢٨٢/٤) .

المطلب الثاني

حالة المجتمع في الأندلس في عصر الإمام ابن حزم

كان أهل الأندلس من ذلك المزيج الذي ازدهرت به الحضارة فأحيا الآداب والفنون والعلوم ، وكانت اللغة العربية وعاء ذلك ، ولم تكن كتاباتهم بلغة العلم الجافة بل كانت تمتاز بسلامة التعبير، وجودة التصوير، وقد ظهر في الأندلس على خلاف البلاد الإسلامية كثيرٌ من الأديبات والشاعرات من النساء: من الحرائر والجواري وقد وُجدَ من الجواري الشاعرات عددٌ كثير من بينهن من يجدن العلوم.

وكان لكثرة الغزوات التي غزاها المسلمون إلى جنوب فرنسا وغيرها من جزر البحر الأبيض وعودتهم بالسبايا وفيها الجواري الحسان اللائي تثقفن ثقافة أدبية عالية أثر على النفس العربية المرفهة الحس نحو الجمال فانطلقت خواطر الشعراء وجادت قرائح الأدباء وانبثقت العواطف الإنسانية ، بعد التزام الجادة ، وآخر لم يحكمه زمام العقل وقيود الفكر وجلال الشرع . وقد جمع أبو محمد ابن حزم مادة كتابه "طوق الحمامة" (١) من هذا المجتمع المليء بالعناصر المختلفة فكل ما يقرره فيه مستمد منه ، وقد صور هذا أتم تصوير وأحكمه وذكر الوقائع المؤيدة والشاهدة لذلك . ثم إنه - رحمه الله - صورة صادقة للفضيلة الإنسانية في مجتمعه ، وكان قلبه يفيض بالأحاسيس نحو الجمال ، ولكن في دائرة الحلال لا يعدوها فهو لم يرتكب حراماً ولم يرتع في مراتع الحرام ، وقد أقسم بالأيمان المغلظة أنه لم يحل إزاره على حرام (٢). وقد عاش المجتمع الأندلسي القرن الرابع الهجري كاملاً في هدوء واستقرار وأمن وازدهار . وكان قمة عهد المسلمين في الأندلس ما قبله صعود انتهى إليه وما بعده انحدار ابتداءً منه وقد عاش المسلمون في هذا القرن حياة عز ورفعة وجاء . وقد رتعوا في بحبوحة من العيش . رغد ورخاء دائم ونعيم مقيم. وقد طغت على المجتمع مظاهر البذخ والترف وتشديد القصور وتحسين الطرقات. وتجميل المتزهات ، حيث اتسعت أبواب العيش وكثرت الموارد عندهم حتى إنهم أصبحوا ، يستقبحون التسول ، وإذا رأوا شخصاً صحيحاً قادراً على الخدمة يمارس هذه العادة سبوه وأهانوه فضلاً عن أن يتصدقوا عليه (٣) .

(١) هذا الكتاب يعطي صورة شيقة لناحية من نواحي الحياة في عصره فيه قصص تسمى العامة والخاصة .

(٢) انظر طوق الحمامة لابن حزم ص ٢٧٤ ، ٢٧٥ .

(٣) انظر نفح الطيب للمقري ج ١ ص ٢٠٥ .

وقد استمر هذا الرخاء في العيش بعد ذلك رغم ما حدث من الاضطرابات
والزعازع السياسية في الأندلس . وقد بقيت قرطبة تقريباً هي أشد المجتمعات تحفظاً
وتظاهراً بالدين والتمسك بالأخلاق ، يقول المقرئ عن قرطبة: "ومن محاسنها ..ظرف
اللباس ، وتظاهر بالدين والمواظبة على الصلاة وتعظيم أهلها لجامعها الأعظم وكسر
أواني الخمر حينما تقع عين أحد من أهلها عليها والتستر بأنواع المنكرات والتفاخر
بأصالة البيت وبالجندي وبالعلم وهي أكثر بلاد الأندلس كتباً وأهلها أشد الناس
اعتناء بخزائن الكتب"(١) حتى ممن لا يقرأ حيث أصبح وضع المكتبة في البيت مما
يتباهى فيه أهل تلك البلاد حتى إن بعضهم يشتري الكتاب بأضعاف ما يستحق ليملاً
به فراغاً في خزانته.

وبجوار هذا كان اللهو الماجن أحياناً في متنزهات قرطبة وغيرها من مدن
الأندلس وكان القول العايب فيها مستزاد ومذهب(٢) . وهذا بلاشك نتيجة لكون
السكان من عناصر كثيرة ، وقد قضى أبو محمد قرابة عشرين عاماً من حياته
الأولى في قرطبة . ويطول بنا المقام لو تتبعنا الوسط الاجتماعي الذي عاش في كنفه
ابن حزم بعد ذلك في الحديث ، ولكن بحسبنا أن نقول: إن هذا الوسط كان حافلاً
بشتى مظاهر الاختلاط فمن اختلاط بين الجنسين إلى اختلاف بين العناصر
والسلالات ومن احتكاك بين المسلمين والنصارى إلى صراع بين أصحاب الفرق
والمذاهب . ولاشك في أن كل هذه المظاهر المختلفة من الاختلاط قد عملت على
تنشيط الحركة الفكرية في أرجاء بلاد الأندلس على الرغم مما صاحبها من مظاهر
الانحلال الخلقي والتفكك الاجتماعي ، وقد قوي واشتد اختلاط المسلمين بالنصارى.
لما ضعف شأن الأمراء المسلمين وصاروا يستعينون ببعض النصارى ويدفعون لهم
الإتاوات أحياناً . وكان اختلاط ابن حزم بتلك الجماعات عاملاً قوياً في تحديد نوع
اتجاهه الفكري وصيغ تفكيره بطابع جدلي . وفي الحق أن كل شيء في الأندلس
كان يتجه إلى تكوين عالم جليل كالإمام ابن حزم ، إن توافرت المواهب التي
تكون كمواهبه والمنزع القوي الذي يكون كمنزعه ، وقد توافرت تلك العناصر
فكان إمام المسلمين وفقهها(٣) ..

(١) نفع الطيب ص ١٠ ، ١١ .

(٢) المرجع السابق ص ١٥٤ .

(٣) انظر ابن حزم لأبي زهرة ص ١١٥ ..

ولكن ظاهرة اجتماعية سيطرت على الأندلس كغيرها ، وهي اتخاذ الدين وسيلة إلى الدنيا وذريعة إلى الغرض من الخصوم ، وكان السلاطين لا يعفون عن إثارة الناس على من يحققون عليه كما كان بعض العلماء أسرع استجابة إلى تهيج الجماهير على من يخالف لهم مذهباً أو ينافسهم في جاه أو ينتزع منهم سلطة ، أو من يخشى إقبال الناس عليه لمواهبه وفضله وكفايته ، وقد حصل لأبي محمد بن حزم التشريد من الأوطان من الأمراء والولاة والتخطئة والتجهيل وتحذير الناس منه وتزهيد الطلاب فيه من العلماء فجفته الديار ونفر منه الأصحاب وإن خفت صوته في حياته وبعد وفاته بزمان قليل فقد ظهر واشتد بعد ذلك .

المطلب الثالث

طبقات الشعب وأجناسهم في الأندلس والطبقة التي ينتمي إليها

إشارة إلى المجتمع الأندلسي فأثره لا يقل عن المجتمع السياسي ولا سيما أن هذا المجتمع أثار كوامن الفكر في الإمام ابن حزم وكوامن الإحساس حتى جعل منه ذلك العالم الذي يكتب في الحب كما يكتب في الفقه والعقائد .

كان المجتمع الأندلسي مختلف الأعراق والمواهب جمع بين سكان البلد الأصليين ، وبين العرب والبربر الوافدين فجمعوا بين خواص كل فئة لذا كان للأندلس مظهر أدبي وفكري واحد وحدته تلك اللغة السامية لغة القرآن الكريم ، فكان البربر وهم غالب الجيش حين الفتح الإسلامي للأندلس ، وقد تزايدوا بعد الفتح لقرب الأندلس من بلادهم ، وفيهم حدة طباع ونفرة شديدة أحياناً ، لذلك كانوا وقود الفتن وموقديها(١) وكان في ذلك المجتمع الصقلية ومن اعتنق الإسلام من سكان البلد الأصليين ومن بقي على ديانته ذمياً له ما للمسلمين وعليه ما عليهم.

اجتمعت تلك العناصر بهذه البلاد التي خصها الله تعالى كما قال المقرئ من الريع وغدق السقيا ولذاذة الأقوات ، وفراهة الحيوان ، ودرور الفواكه وكثرة المياه ، وتبحر العمران ، وجودة اللباس ، وشرف الآنية ، وكثرة السلاح ، وصحة الهواء ، وبيضاض ألوان الإنسان ، ونبل الأذهان ، وفنون الصنائع ، وشهامة الطباع ، ونفوذ الإدراك ، وأحكام التمدن والعمران بما حرمة كثير من الأقطار مما سواها(٢) .

يقول "المقرئ"(٣) أهل الأندلس عرب في الأنساب والعزة والأنفة ، وعلو الهمم ، وفصاحة الألسن ، وطيب النفوس ، وإباء الضيم وقلة احتمال الذل ، والسماحة بما في أيديهم والنزاهة عن الخضوع ، وإتيان الدنية ، هندیون في فرط عنايتهم بالعلوم وحبهم فيها ، وضبطهم لها وروايتهم ، بغداديون في نظافتهم وظرفهم ورقة أخلاقهم ونباهتهم وذكائهم وحسن نظرهم وجودة قرائحهم ولطافة أذهانهم وحدة أفكارهم ونفوذ خواطرهم ، يونانيون في استنباطهم للماء ومعاناتهم لضروب الغراسات واختيارهم لأجناس الفواكه وتديبرهم لتركيب الشجر وتحسينهم للبساتين بأنواع الخضر وصنوف الزهر ، فهم أحكم الناس لأسباب الفلاحة وهم أصبر الناس على مطاولة التعب في تجويد الأعمال ومقاساة النصب في تحسين الصنائع أحذق الناس بالفروسية

(١) طوق الحمامة ص ٢٦١ ، نفح الطيب ج ٢ ص ٢٧.

(٢) نفح الطيب للمقرئ ج ١ ص ١٢٤ - ١٢٥.

(٣) المقرئ : أحمد بن محمد التلمساني أديب المغرب وحافظه ، صاحب كتاب "نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب" توفى ١٠٤١هـ انظر الأعلام (١/٢٣٧) .

وأبصرهم بالطعن والضرب(١)، وكان كثرة النعيم ، وطيب المناخ ، واتساع الفتوحات أكثرت من الجواري الحسان المثقفات ثقافة عالية، لذلك نجد أن الإمام ابن حزم يصور لنا في كتابه "طوق الحمامة" طرفاً من مظاهر التمتع في مجتمعه ، وفي مثل هذه الأجواء كثر الطرب، واللهو، وتقاوت النساء الشعر، حتى أنه ظهر من العربيات بل من الأمويات من يتغزلن بالشعر، ويتقلبن الغزل شعراً ونثراً مثل "ولادة بنت المستكفي"(٢).

ولكن المجتمعات عندما تكثر فيها الفتن ، وتتفكك الأحوال السياسية يضمحل المجتمع، وينحط عطاؤه ، وتصبح تركيبته السكانية مصدر فرقة وتشرذم بعد أن كانت قوة تقدم . فنجد أن الأعراق المختلفة من بربر وصقالية وأسبان في ظل الانهيار السياسي أصبحوا مصدراً للاضطراب الاجتماعي عموماً. لم يكن المجتمع في عهد الإمام ابن حزم مجتمعاً مثالياً رغم ما امتازوا به وذلك لانعكاس ظلال الاضطراب السياسي الحاد على النسيج الاجتماعي ، فرفع المجتمع من كان وضعاً جاهلاً ، ووضع من كان عالماً رقيقاً .

(١) انظر نفع الطيب (٤/١٤٦- ١٤٧) .

(٢) ولادة بنت المستكفي بالله محمد بن عبد الرحمن الأموي شاعرة أندلسية من بيت الخلافة ، كانت تخالط الشعراء وتساجلهم ، توفيت بقرطبة عام ٤٨٤هـ . انظر الأعلام (٨/١١٨).

المبحث الثالث

الحالة العلمية والفكرية

وفيه تمهيد وثلاثة مطالب

المطلب الأول : درجة الإمام ابن حزم العلمية في عصره

المطلب الثاني : العلوم العقلية والفكرية في عصره

المطلب الثالث : العلوم العربية والإسلامية التي برع فيها

ومنهجه في التأليف

تمهيد :

أهل الأندلس في فنون العلم كانوا أحرص الناس على التميز ، فالعلم عندهم مُعظم من الخاصة والعامة ، ومع هذا فليس لهم مدارس تعينهم على طلب العلم ، فهم يقرؤون جميع العلوم في المساجد .

وكل العلوم عندهم فيها حظٌ واعتناء ، إلا أن الفلسفة والتنجيم لهما حظٌ عظيم عند الخواص ، وقراءة القرآن عندهم بالسيح ، ورواية الحديث عندهم رفيعة ، وللفقه رونقه وجاهه ، ولا مذهب عندهم إلا مذهب الإمام مالك ، وسمة الفقيه عندهم جلية ، ويقولون للكاتب والنحوي والفرضي "فقيه" لأنها عندهم أرفع السمات ، وعلم الأصول عندهم متوسط الحال ، والنحو عندهم في نهاية علو الطبقة ، وكل عالم في أي علم لا يكون متمكناً في علم النحو فليس بمستحق للتميز^(١) . يقول الإمام ابن حزم عن العلماء في عصره^(٢) ، كانوا في الذروة العليا من التمكن بأفانين العلوم وفي الغاية القصوى من التحكم على وجوه المعارف...، وكان أهل الأندلس من التمكن في علوم القراءات والروايات وحفظ كثير من الفقه ، والبصرة بالنحو والشعر واللغة والطب والحساب والنجوم . فنجد في عصر الإمام ابن حزم يعني بالعلوم ويضع لها مكانة سامية ، فكان له الأثر الكبير والحسن في نشأة الإمام ابن حزم نشأة علمية راسخة تتسم بالشمول لكل العلوم .

وكان احتكاك المسلمين بالنصارى واليهود وغيرهم في الأندلس قد مكن الإمام ابن حزم من أن يتضلّع في علوم الملل والنحل وأن يخرج الكتب القيمة ، هذه البيئة العلمية المليئة بالمراجع والكتب جعلت الإمام ابن حزم يرتوي من علم أهل المشرق فكتبه تدل على أنه الخبير واسع الإطلاع على مسائل الفقهاء .

(١) نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب (٢٠٥/١ - ٢٠٦) .

(٢) رسالة رد الإمام ابن حزم على ابن الزبيب المنشورة في نفح الطيب (١٥٤/٤ - ١٧٠) . يتحدث فيها الإمام ابن حزم عن فضل الأندلس وعلمائهم ومكانتهم .

المطلب الأول

درجة الإمام ابن حزم العلمية في عصره

إن الإمام ابن حزم كان رجلاً أمة ، وأمة في رجل فهو المفسر ، والمحدث ، والفقيه ، والحافظ ، والمقريء ، والأصولي ، واللغوي ، والشاعر ، والكاتب ، والأديب ، والداعية ، والخطيب ، والمؤرخ ، والفيلسوف ، والمتكلم ، والحكيم ، والوزير ، فقد كان - رحمه الله - موسوعة ، وبحراً خضماً ، وأفقاً متسعاً ، وهمته عالية ، جمع من العلوم ما قصر عن جمعه العلماء ، وفاق علماء عصره شمولاً واتساعاً في العلم وتقدمهم تخصصاً وتحقيقاً ، وأعجزهم أن يدركوه كتابة وتأليفاً ، حتى قيل أنه اجتمع عند ابنه "الفضل" (١) بخط يد أبيه أربعمائة مجلد تشتمل على حوالي ثمانين ألف ورقة في الفقه والحديث والأصول والملل والنحل والسير والتاريخ وغيرها من معارف الإمام ابن حزم الواسعة في النسب والأدب والمنطق والطب وهذا شيء ما علم لأحد ممن كان قبله في الإسلام إلا "ابن جرير الطبري" (٢).

ولكن نؤكد جازمين بأن الإمام ابن حزم قد فاق "الطبري" لأن كل كتابات الطبري محصورة في التاريخ والنسب ، والإمام ابن حزم فاقه بالعلوم العقلية والنقلية.

(١) الفضل بن علي بن أحمد بن سعيد بن حزم ولد عام ٤٢٠هـ وتوفي عام ٤٨٨هـ . وكان يكنى أبو رافع وقد أكمل كتاب المحلى بعد وفاة أبيه . انظر دائرة المعارف الإسلامية (١٤٣/١) .

(٢) الطبري : أبو جعفر محمد بن جرير بن يزيد الطبري ، المؤرخ المفسر ، الإمام ولد في آمل طبرستان عام ٢٢٤هـ واستوطن بغداد وتوفي عام ٣١٠هـ ، عرض عليه القضاء فأبى ، وهو من ثقات المؤرخين ، قال ابن الأثير : أبو جعفر أوثق من نقل في التاريخ ، وتفسيره يدل على غزير ، وتحقيق ، وكان مجتهداً في أحكام الدين ، لا يقلد أحداً وله من المصنفات : "أخبار الرسل والملوك" ويعرف بتاريخ الطبري وله "جامع البيان في تفسير القرآن" . انظر الأعلام (٦٩/١) وفيات الأعيان (١٩٢/١٩٤١/٤) - انظر معجم الأدباء (٢٣٩/١٢).

المطلب الثاني

العلوم العقلية والفكرية في عصره

قد كانت العلوم العقلية والفكرية في عصر الإمام ابن حزم لها الصولة والجلولة بين الخاصة ، لذلك نجد أن الإمام ابن حزم لم يسلم من الخوض في بحرهما .
فقد تعلم الإمام ابن حزم المنطق منذ صباه عن طريق شيخه "محمد الحسن المدبجي" (١) وأمعن فيه وقد أوجد المنطق في الإمام ابن حزم عقلية حرة وفكراً ثاقباً ،
سرعانما اتسع به قال "الذهبي" (٢): "وكان قد مهر أولاً في الأدب والأخبار والشعر وفي المنطق وأجزاء الفلسفة ، فأثرت فيه تأثيراً ليته سلم من ذلك" (٣).

ولكن سرعانما ترك علم المنطق والفلسفة لعلوم الإسلام كما قال "ابن صاعد" (٤) وعني بعلم المنطق وبرع فيه ، ثم أعرض عنه ، وأقبل على علوم الإسلام حتى نال من ذلك ما لم ينله أحد بالأندلس قبله (٥).

ولكن هذه الإمامة في المنطق لم تكن محمودة له من كثير من العلماء ، ولاسيما أن الإمام ابن حزم رأس في علماء الإسلام ، قال "الذهبي": "لقد وقفت له على تأليف يحض فيه على الاعتناء بالمنطق ويقدمه على العلوم ، فتأملت له ، فإنه رأس في علوم الإسلام ، متبحر في النقل ، عديم النظر على يُيس فيه ، وفرط ظاهرية في الفروع لا الأصول" (٦).

والحق أن براعته في علم المنطق رغم تركه أوقعه في أمرين:

١ / أن علم المنطق والفلسفة أورثانه اضطراباً في بعض مسائل الاعتقاد التي خالف فيها السُّنة وعمل فيها بالرأي والعقل في أمور كان التسليم فيها للوحي أسلم من الخوض فيها.

(١) تأتي ترجمته في شيوخ ابن حزم.

(٢) الذهبي : محمد بن أحمد بن عثمان بن قايماز الذهبي شمس الدين أبو عبد الله حافظ ، مؤرخ ، علامة ، محقق ، تركماني الأصل مولده بدمشق عام ٦٧٣هـ وفاته ٧٤٨هـ له تصانيف كثيرة تبلغ المائة منها دولة الإسلام، تاريخ الإسلام الكبير، سير أعلام النبلاء، تذكرة الحفاظ . انظر الأعلام (٣٢٦/٥) ، الشذرات (١٥٣/٣).
(٣) سير أعلام النبلاء ١٨٦/١٨.

(٤) صاعد بن أحمد بن عبد الرحمن بن صاعد الأندلسي التغلبي ، أبو القاسم مؤرخ بحاجة أصله من قرطبة ومولده في "المرية" ولي القضاء إلى أن توفي ، من كتبه : "جوامع أخبار الأمم من العرب والعجم" ، "صوان الحكم في طبقات الحكماء" ، "تاريخ الأندلس" كان مولده عام ٤٢٠هـ وتوفي عام ٤٦٢هـ . انظر الأعلام ١٨٦/٣.

(٥) سير أعلام النبلاء ١٨٨/١٨ .

(٦) المرجع السابق ٢٠٠٠/١٨ ، معجم الأدباء (٢٣٧/١٢) - ٨٠

قال "ابن كثير" "والعجب كل العجب منه كان ظاهرياً حائراً في الفروع لا يقول بالقياس لا الجلي ولا غيره ، وكان من أشد الناس تأويلاً في باب الصفات ، وآيات الصفات ، وأحاديث الصفات لأنه كان قد تضلع في علم المنطق وأخذ من "محمد بن الحسن المذبجي" الكناني القرطبي ذكره "ابن ماكولا" (١) و"ابن خلكان" (٢) ففسد بذلك حاله في باب الصفات (٣) وقال الحافظ الذهبي "ما أعرض عنه - أي المنطق - حتى زرع في بطنه أموراً وانحرفا عن السنة" (٤).

٢ / لم يفهم مقصود من جادل وخالف كما قال "ابن حيان" ، كان الإمام ابن حزم - رحمه الله - حامل من حديث وفقه وجدل ونسب ... ، مع المشاركة في أنواع التعاليم القديمة من المنطق والفلسفة ، وله كتب كثيرة لم يخلُ من غلط لجراءته في التسور على الفنون لاسيما المنطق ، فإنهم زعموا أنه زل هنالك ، وضل في سلوك المسالك وخالف أرسطاطاليس (٥) واضع الفن مخالفة من لم يفهم غرضه ولا ارتضاه (٦).

-
- (١) ابن ماكولا: هبة الله بن علي بن جعفر ، أبو القاسم بن ماكولا كان عارفاً بالشعر والأخبار ، استوزره جلال الدولة ببغداد تعرض للحبس ، ولد عام ٣٦٥هـ وقتل في حبسه عام ٤٣٠هـ . انظر الأعلام ٣٧/٨ .
- (٢) ابن خلكان : أحمد بن إبراهيم بن أبوبكر بن خلكان البرمكي الأربيلي أبو العباس ، المؤرخ ، الحجة ، الأديب الماهر ، صاحب كتاب وفيات الأعيان ، وأنباء أبناء الزمان ، وهو من أشهر كتب التراجم ومن أحسنها ضبطاً وأحكاماً ولد في أربك عام ٦٠٨هـ توفى ٦٨١هـ بدمشق . الأعلام ٢٢٠/١ .
- (٣) البداية والنهاية ٩٨/١٢ .
- (٤) سير أعلام النبلاء ١٨٨/١٨ .
- (٥) أرسطاطاليس : ولد في شمال اليونان ٣٨٤ ق.م وكان والده طبيباً وهو من أشهر الفلاسفة وأقدمهم بلقب بالفيلسوف والمعلم الأول والحكيم . انظر كتاب أرسطاطاليس المعلم الأول بقلم ماجد فخري المطبعة الكاثوليكية .
- (٦) سير أعلام النبلاء ٢٠٠/١٨ ، معجم الأدباء ٢٣٧/١٢ .

المطلب الثالث

العلوم العربية والإسلامية التي برع فيها ومنهج في التأليف

❖ أولاً – القرآن الكريم :

قال الإمام ابن حزم عن نفسه: "ولا جالست الرجال إلا وأنا في حد الشباب وحين تفيل (١) عن وجهي وهن الجواري والقريبات علمني القرآن ، ورويني كثيراً من الأشعار ، ودريني في الخط" (٢). فقد حفظ الإمام ابن حزم القرآن صغيراً وتربى عليه يافعاً . وقال كان الإمام ابن حزم ذا مقدرة فذة في الاستدلال بالقرآن ، وأخذ الأحكام من نصوصه ومعرفة مدلولاتها ، وله إطلاع على الناسخ والمنسوخ وله في ذلك كتاب مشهور متداول (٣).

وله إطلاع واسع في التفسير مما مكنه من الترجيح بين التفاسير حيث يقول – رحمه الله – في معرض ذكره لعلماء الأندلس وما ألفوه "وفي تفسير القرآن كتاب أبي عبد الرحمن" بقي بن مخلد (٤) فهو الكتاب الذي أقطع قطعاً لا أستثني فيه أنه لم يؤلف في الإسلام تفسيراً مثله ، ولا تفسير "محمد بن جرير الطبري" ولا غيره (٥).

❖ ثانياً – الحديث وعلومه :

بلغ الإمام ابن حزم – رحمه الله – مرتبة المحدثين الحفاظ ، فقد كان قوي الضبط ، واسع الحفظ ، ذا همة عالية مما مكنه من جمع ثروة ضخمة جداً من الحديث الشريف ، وفتاوى الصحابة والتابعين مع المعرفة بالرجال والأسانيد ، وعلل الحديث . يقول "الذهبي" "هو الإمام العلامة ، الفقيه ، المجتهد" (٦) . يقول "ابن كثير" "هو الإمام ، الحافظ ، العلامة" (٧).

(١) تفيل: يقال تفيل النبات اكتهل ، والشاب زاد ، وفلان سمن ، انظر لسان العرب ج٤ ص٥٠ ، والقاموس المحيط ج٤ ص٣٣.

(٢) طوق الحمامة ص٥٠.

(٣) مطبوع على هامش تفسير الجلالين .

(٤) بقي بن مخلد أبو عبد الرحمن ، من حفاظ المحدثين ، ومن أئمة الدين الزهاد الصالحين ، رحل إلى المشرق ، وروي عن الأعلام منهم : أحمد بن حنبل ، وابن أبي شيبه وكتب المصنفات الكبار وبالغ في الجمع والرواية ورجع إلى الأندلس فملأها علماً . انظر الجذوة (١٧٧) .

(٥) جذوة المقتبس (١٧٧).

(٦) انظر تذكرة الحفاظ للذهبي (١١٤٦/٣) .

(٧) انظر البداية والنهاية (٩٨/١٢) .

وتروي لنا كتب "الرجال" (١) أنه بدأ الحديث مبكراً فقد سمع الحديث وعمره شارف على السادسة عشرة ، فكان - رحمه الله - معتنياً بالحديث لأنه العمدة في استدلاله من غير تعريج إلي الاجتهاد بالرأي ، فقد أفرغ جهده في تحري الحديث الصحيح يقول "الذهبي" "ولي أنا ميلٌ إلي "أبو محمد" لمحبتة في الحديث الصحيح ومعرفته به (٢).

يقول الحافظ ابن حجر (٣) "وكان واسع الحفظ جداً ، إلا أنه لثقة حفظه كان يهجم كالقول في التعديل والتجريح ، وتبيين أسماء الرواة فيقع له في ذلك أوهام شنيعة (٤) وله كتب كثيرة في الحديث وعلومه نذكرها في بحث مؤلفات الإمام ابن حزم.

❖ ثالثاً - أصول الفقه:

كان الإمام ابن حزم - رحمه الله - متمكناً في علم الأصول وكان مجتهداً ولم يكن مقلداً ، فكان يحقق المسائل الكلامية والمنطقية بما استبان له من بديهات العقل والحس ، وكذلك ينظر في مباحث الألفاظ اللغوية ومدلولاتها نظرة فاحصة.

ويرجع ذلك إلي إحكامه للعلوم الثلاثة التي استمد علم الأصول منها وهي العلوم الشرعية ، واللغوية ، والكلامية وهذا الذي جعله أصولياً متفرداً .

(١) ذكره الذهبي في التذكرة (١٨٥/١٨) قال : وسمع سنة أربع مائة وبعدها من طائفة منهم : يحيى بن مسعود بن وجه الجنة ، صاحب قاسم بن أصبغ وهو أعلى شيخ عنده ، ومن أبي عمر أحمد بن محمد بن الجسور ، ويونس بن عبد الله بن مغيث القاضي ، وحمام بن أحمد القاضي ، ومحمد بن سعيد بن نبات وعبد الله بن ربيع التميمي ، وعبد الرحمن بن عبد الله بن خالد ، وعبد الله بن محمد بن عثمان وأبي عمر أحمد بن محمد الطلمنكي ، وعبد الله بن يوسف بن نامي وأحمد بن قاسم محمد بن أصبغ ، وينزل إلي أن يروي عن أبي عمر بن عبد البر وأحمد بن عمر بن أنس العذري ، وأجود ما عنده من الكتب "سنن النسائي" يحمله عن ابن ربيع عن ابن الأحمر ، عنه وأنزل ما عنده "صحيح مسلم بينه وبينه خمسة رجال ، وأعلى ما رأيت له حديث بينه وبين وكيع فيه ثلاثة أنفس .

(٢) سير أعلام النبلاء (٢٠١/١٨ - ٢٠٢) .

(٣) ابن حجر : هو أحمد بن علي بن محمد الكناني العسقلاني ، أبو الفضل شهاب الدين ابن حجر ، من أئمة العلم والتاريخ - حجة في الحديث ، مؤرخ ، فقيه شافعي ولد عام ٧٧٣هـ في مصر ودرس على أعظم شيوخ عصره كالبليغيني وعز الدين بن جماعة توفي عام ٨٥٢هـ . انظر الأعلام (١٧٨/١) . شذرات الذهب ٢٧٠/٤ .

(٤) لسان الميزان (١٩٨/٤) ابن حجر العسقلاني .

ما امتاز به الإمام ابن حزم في الأصول:

- ١ - إطلاعه على فقه الأئمة الأربعة وحفظه المتقن لمسائل الفقهاء مع الملكة العقلية النافذة جعلته يتميز في الاستدلال.
 - ٢ - تقدمه في علم الحديث وانه من المحققين ومن الحفاظ مما جعله يمتاز على الأصوليين ، فلم يقع فيما وقع فيه كثير من الأصوليين من الاستدلال بالأحاديث الواهية .
 - ٣ - يقول مقدم كتاب الأحكام (١) فأنا لا أعرف كتاباً بين مفكري العربية يضع بين يديه أطروحة ما لم يعالجها في استيفاء شمولي ومنهجية شاملة كما يفعل الإمام ابن حزم ، يستوي ذلك في كتبه ذات المجلدات العديدة ورسائله المطولة.
- وقد جمع الإمام ابن حزم أصوله الفقهية ومسائله في الأصول في عدة كتب منها كتاب "النبهة الكافية" ، "والنكت الموجزة في نفي القياس والرأي والتعليل والتقليد" ، "مراتب الإجماع" ، "ما وقع بين الظاهرية وأصحاب القياس" ، "كتاب الأحكام في أصول الأحكام".
- فكتاب الأحكام في أصول الأحكام: هذا الكتاب الذي جعله الإمام ابن حزم السفر الذي يعبر فيه عن آرائه الأصولية ، وموسوعة جامعة لأصوله الفقهية وحجة قوية لنقد مذاهب غيره من الأصوليين والفقهاء ، جمعه في مجلدين وثمانية أجزاء ، وجعله الإمام ابن حزم أيضاً شرحاً لأية من كتاب الله تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ (٢).
- قال الإمام ابن حزم فنظرنا في هذه الآية فوجدناها جامعة لكل ما تكلم فيه الناس ، فكان هذا كله في بيان العمل بهذه الآية ، وكيفية بيان الطاعتين المأمور بهما لله تعالى ولرسوله عليه الصلاة والسلام ، وطاعة أولي الأمر ومن هم أولوا الأمر ، وبيان التنازع الواقع منا ، وبيان ما يقع فيه التنازع ، وبيان ما تنازع فيه إلي الله تعالى ورسوله عليه السلام وهذا جماع الديانة كلها (٣).

(١) الذي قدم الكتاب الدكتور إحسان عباس (١/ب)

(٢) سورة النساء الآية ٥٩.

(٣) الأحكام في أصول الأحكام (٩/١ - ١٠).

سبب تأليف هذا الكتاب هو: امتثال لأمر الله تعالى يقول "فوجب علينا أن ننفر لما استتفرنا له خالقنا عز وجل" ثم ذكر الآية (١).

مميزات الكتاب:

١ / من الواضح أن الإمام ابن حزم ألف كتابه الإحكام بعد أن اكتملت المباحث العقلية والجدلية والفقهية عنده ، أي في مرحلة متأخرة من حياته العلمية ، بعد أن نضجت وتوسعت مباحثه ومقدراته الأصولية ، لذلك نجد الثقة الكبيرة التي يبديها فيما يقرره من مسائل فقد قدم بين يدي كتابه هذا كتاب التقريب (٢) وهو كتاب من المباحث المنطقية والكلامية ، أكمل فيه مسائله وأبرز فيه تجاربه وكذلك كتاب "الفصل" وهو الكتاب الذي جادل فيه وقيم كل الممل والمذاهب وأيضاً كان يميل إلى كتاب "الإيصال" (٣) وهو الجامع للفقه والحديث .

٢ / امتاز بأنه أجمع وأشمل بل وموسوعة لأصول الظاهرية حيث إنه لا يوجد للظاهرية كتاب مشهور منتشر مثل هذا الكتاب ، بل ولم يكن للظاهرية كتاب قبله جامع لأصولهم سوى مباحث متفرقة ألفها داؤد وابنه محمد وغيرهم من العلماء فبالتالي كان كتاب الإحكام هو الكتاب الذي حفظ لنا أصول المذهب الظاهري على مر السنين.

٣ / وامتاز أيضاً بأن حوى على محاولات قيمة ومسائل فقهية جريئة تجعله قبله للباحثين والمحققين ، ونستطيع أن نستخرج منه جزءاً متوسطاً من فقه المالكية وكذلك من فقهيات الأحناف .

وأما الشافعية فلم يكثر من إيراد مسائلهم لأنه يرى أنهم أكثر انضباطاً في الفقه وأصوله وأكثر التزاماً بالنصوص .

أما الحنابلة لم يتعرض لمسائلهم إلا نادراً ، فلعله لم يعدهم من الفقهاء بل من أهل الحديث .

٤ / وضوح الكتاب ونصوع منهجه وابتعاده عن التعقيد وتشعب المسائل مما جعله في متناول الجميع لذلك أقول إنه لا يحتاج إطلاقاً إلى شروح وحواشي ، ولعله قد يكون في حاجة إلى الاختصار أكثر من الشرح والتبيين .

(١) الإحكام في أصول الأحكام (١/١٠٠٩)

(٢) المرجع السابق (١ - ١٦).

(٣) المرجع السابق (٤/٨٠ ، ١/٧٢) .

❖ رابعاً - الفقه :

الإمام ابن حزم قد اطلع أيضاً على فقه الأقدمين مما مكنه من جمع أقوالهم وتعريفاتهم ، فإذا نظرت إلي "المحلى" بالأدلة فحسبك به وهو اختصار لكتاب "الإيصال إلي فهم كتاب الخصال".

قال ابن عميرة (١) الضبي وألف في فقه الحديث كتاباً كبيراً سماه كتاب "الإيصال إلي فهم الخصال" الجامعة لجمع شرائع الإسلام في الواجب والحلال والحرام وسائر الأحكام على ما أوجبه القرآن والسنة والإجماع ، فقد أورد فيه أقوال الصحابة والتابعين ومن بعدهم من أئمة الدين من مسائل الفقه والحجة لكل طائفة (٢) لقد كان الإمام ابن حزم متخصصاً في الفقه عالماً بفقه الصحابة والتابعين وتابعي التابعين ، والأئمة الأربعة وغيرهم فقد بلغ مرتبة المجتهد المطلق . قال الذهبي عنه "فناظر أحسن مناظرة ، وقال فيها أنا اتبع الحق وأجتهد ولا أتقيد بمذهب" (٣).

فالإمام ابن حزم له فقه متميز له لون خاص وآراء فقهية ليست في فقه الأئمة الأربعة ولا غيرهم ، لأنه يخالف الفقهاء والأصوليين في كثير من المسائل الأصولية لذلك كان لابد أن يباينهم في كثير من المسائل الفرعية . وله كتب في الفقه نذكرها عند مؤلفات الإمام ابن حزم .

❖ خامساً - اللغة العربية والشعر والأدب :

إن من تمام العلم وتمامه فصاحة اللسان ، وقوة البيان ، فقد جمع الإمام ابن حزم بين مادة الاجتهاد شاعراً مفحماً وخطيباً مقدماً وأديباً متفرداً وكاتباً أريباً ، فقد كان الأدب والشعر بضاعته وصناعته قبل العلم ، فشرب من كأسه في صباه قبل أن يتضرع من بحور العلم .

قال "الحافظ ابن حجر" (٤): واشتغل في صباه بالأدب والمنطق والعربية وقال الشعر ، وترسل ثم أقبل على العلم (٥).

(١) هو أحمد بن يحيى بن أحمد بن عميرة أبو جعفر الضبي ، مؤرخ من علماء الأندلس رحل إلى شمال أفريقيا والإسكندرية له من المصنفات "بغية الملتبس في تاريخ الأندلس" توفي عام ٥٥٩هـ "بمريسية" . انظر الأعلام (٢٦٨/١).

(٢) بغية الملتبس (٤١٥ - ٤١٦).

(٣) سير أعلام النبلاء ١٨/١٩١.

(٤) تقدمت ترجمته ص ٢٨ رقم ٣.

(٥) لسان الميزان ٤/١٩٨ .

وقال "الذهبي": "وكان قد مهر أولاً في الأدب والأخبار والشعر" (١) ، وقال تلميذه الحميدي (٢): "وكان له في الأدب والشعر نفس واسع وباع طويل وما رأيت من يقول الشعر على البديهة أسرع منه وشعره جمعته على حروف المعجم" (٣).
 قال "أبو القاسم بن صاعد" (٤): كان الإمام ابن حزم أجمع أهل الأندلس قاطبة لعلوم الإسلام مع توسع في علم اللسان ، ووفور حظه من البلاغة والشعر ، وله في ذلك كتب منها "بيان الفصاحة والبلاغة" "شيء من العروض" "التعقيب على الإفليلي في شرحه لديوان المتنبي" "مؤلف في الظاء والضاد" (٥).
 من شعره:

أنا الشمس في جو العلوم منيرة ولكن عيبي أن مطلعَي الغرب
 ولو أنني من جانب الشرق طالع لجدُّ على ما ضاع من ذكرَي النهب

ومن شعره:

أنائم أنت عن كُتب الحديث وما أتى على المصطفى فيها من الدين
 كمسلم والبخاريَّ اللذين هما شداً عرى الدين في نقل وتبيين
 أولى بأجر وتعظيم ومحمدية من كل قول أتى من رأي سحنون
 يا من هدى بهما اجعلني كمثلهما في نصر دينك خلاصاً غير مفتون

ومن شعره في الزهد:

هل الدهر إلا ما عرفنا وأدركنا فجاءهُ تبقى ولذاته تفتنى
 إذا أمكنت فيه مسرة ساعة تولت كمر الطرف واستخلفت حزناً
 إلي تبعات في المعاد وموقف نود لديه أننا لم نكن كنا
 حين لما ولى وشغل بما أتى وهم لما نخشى فعيشك لا يهنا

حصلنا على هم وإثم وحسرة وفات الذي كنا نلذ به عنا
 كأن الذي كنا نسر بكونه إذا حققت النفس لفظ بلا معنى

(١) سير أعلام النبلاء ١٨ - ١٨٦.

(٢) تأتي ترجمته في تلاميذ الإمام ابن حزم .

(٣) جذوة المقتبس ٣٠٨.

(٤) تقدمت ترجمته ص ١٦ رقم ٤.

(٥) سير أعلام النبلاء (١٨٠/١٨٧) .

❖ سادساً - العلوم الإنسانية والاجتماعية:

التاريخ - الأنساب - الملل والنحل - الطب

قال "اليسع بن حزم الغافقي" (١) وذكر "أبا محمد" فقال : أما محفوظة فبحر عجاج ، وماء ثجاج ، يخرج من بحره مرجان الحكم ، وينبت بثجاجة ألفاف النعم في رياض الهمم ، لقد حفظ علوم المسلمين ، وأربى على كل أهل دين ، وألف الملل والنحل وكان في صباه يلبس الحرير ، ولا يرضى من المكانة إلا بالسرير (٢) فقد كان الإمام ابن حزم جامعة متفردة وجبلاً راسخاً من أي الفجاج أتيته وجدته شامخاً إلى السماء.

في التاريخ : كان له إلمام واسع وإطلاع متحقق ، وكانت له كتب فيه حتى أنه كتب في أدق فروعها وهي الأنساب في كتابه "جمهرة أنساب العرب" المشهور المتداول (٣).

قال "ابن صاعد" (٤) وله مع ذلك توسع في علم البيان وحفظ في البلاغة ، ومعرفة بالسير والأنساب (٥) وكانت له كتب في التاريخ منها "جوامع السير" (٦) "أسماء الخلفاء" ، "نسب البربر" ، وقد ألف الإمام ابن حزم في الملل والنحل كتاباً مشهوراً متداولاً يدل على سعة علمه وإطلاعه على مناهج وعقائد الأمم المسلمة وهو "الفصل في الملل والنحل" وهو كتاب فريد في بابها ومنهاجه وهو عبارة عن تاريخ انتقادي للمذاهب البشرية وله كتاب "إظهار تبديل اليهود والنصارى للتوراة والإنجيل" قال عنه "ابن صاعد" "وكتاب إظهار تبديل اليهود والنصارى للتوراة والإنجيل وبيان تناقض ما بأيديهم من ذلك مما يحتمل التأويل ، وهذا ما سبق إليه" (٧).

(١) الغافقي : اليسع بن عيسى بن حزم بن عبد الله بن اليسع الغافقي الجبالي - أبو يحيى مؤرخ من العلماء بالقراءات ، سكن "بلنسية" ، ورحل إلى مصر ، جمع للسلطان صلاح الدين الأيوبي كتاب سماه "المغرب في محاسن المغرب" وهو أول من خطب بمصر على منابر العبيديين بالدعوة العباسية ، كان السلطان صلاح الدين يكرمه ، توفي سنة ٥٧٥ هـ - انظر الأعلام للزركلي (١٩١/٨) ، شذرات الذهب في أخبار من ذهب (٥٢/٢) لابن الفلاح .

(٢) انظر سير أعلام النبلاء ١٨/١٩٠ .

(٣) نشرته دار المعارف بتحقيق الأستاذ عبد السلام هارون .

(٤) تقدمت ترجمته صفحة ٢٥ رقم ٤ .

(٥) سير أعلام النبلاء ١٨/١٨٧ .

(٦) طبع بدار المعارف تحقيق الدكتورين إحسان عباس ، ناصر الأسعد بهامشه خمسة رسائل لابن حزم .

(٧) جذوة المقتبس ٣٠٨ .

أما في الطب فقد كانت له معرفة جيدة وله فيه مباحث وممارسة قال "ابن كثير" "كان أديباً شاعراً فصيحاً ، له في الطب والمنطق كتب"(١).

منهجه في التأليف:

نجد أن للإمام ابن حزم منهجاً فريداً انفرد به عن العلماء مما جعله مقدماً عليهم وهذه أهم سمات منهجه:

- ١ - الإمام ابن حزم يحسن التقسيم والترتيب من أبواب وفصول مما يسهل على الباحث وجود المعلومات .
- ٢ - يكرر الإمام ابن حزم المسائل التي يراها مهمة في عدة أبواب حتى ترسخ في ذهن القارئ .
- ٣ - يكثر من المسائل الفرعية ويعطي أمثلة جيدة تبين المقصود وتقرر الفهم .
- ٤ - أفرد باباً كاملاً لتحديد معاني الألفاظ والمصطلحات .
- ٥ - تحديد الفكرة ثم معالجة الأبواب والمسائل وفقها معالجة محكمة .
- ٦ - عرض آراء المخالفين واستيعابها ثم مناقشتها .
- ٧ - عدم التقليد بل كان يختار ويتبع ما استبان له دليله .
- ٨ - الأسلوب واضح لا غموض فيه ولا لبس ولا ألغاز فهو بعيد جداً عن التعقيد.
- ٩ - يميل إلى الإيجاز وعدم التشعب في المسائل. إلا في باب ذكر الأدلة ومناقشتها.

ملاحظات على منهج الإمام ابن حزم :

- ١ . التعصب المفرط لمنهجه وآرائه حتى ولو أوقعه ذلك في أمور لا يحمد عليها.
- ٢ . إلزام خصومه بأقوال لا تقتضيها أقوالهم لبيان تناقضهم .

ملاحظات على أسلوب ابن حزم :

- ١ . استعمال العبارات اللاذعة ضد مخالفيه .
- ٢ . كثيراً ما يميل إلى تجريح مخالفيه ويصفهم بالجهل والحماسة وسوء القصد.
- ٣ . يكتب بأسلوب فيه كثير من التعالي والثقة المفرطة بالنفس .

(١) البداية والنهاية (٩٨/١٢) .

الفصل الثاني

حياة الإمام ابن حزم الشخصية

وفيه ثلاثة مباحث

المبحث الأول : اسمه وكنيته ومولده ونشأته

المبحث الثاني : شيوخه وتلاميذه وتأثره بالعلماء

السابقين وتأثيره على من بعده

المبحث الثالث : مصنفاته ، ثناء العلماء عليه ، وفاته

المبحث الأول

اسمه ومولده ونشأته

وفيه ثلاثة مطالب

المطلب الأول : اسمه وكنيته ومولده

المطلب الثاني : أصله وأسرته

المطلب الثالث : نشأته

المطلب الأول

اسمه وكنيته ومولده

اسمه :

هو الإمام الأوحّد ، البحر ، ذو الفنون والمعارف أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم بن غالب بن خلف بن معدان بن سفيان الفارسي ، مولى يزيد بن أبي سفيان صخر بن حرب بن أبي أمية بن عبد شمس الأموي القرشي وهو المعروف بيزيد الخير أخو معاوية ، وأكثر من ترجم لابن حزم يتفقون على أن أصله فارسي ، وأن جده الأقصى "يزيد" هو أول من أسلم من أجداده .

كنيته:

أبو محمد :من السنة الثابتة عن رسول الله ﷺ استحباب التكني فكان عليه الصلاة والسلام يقول "سموا باسمي ولا تكنوا بكنيتي"(١) ، وقال لعائشة رضي الله عنها تكني بأبن أخيك عبد الله(٢).

مولده:

يقول الشيخ محمد أبو زهرة(٣):

لا يكاد الباحث الدارس يجد عالماً عظيماً قد عرف وقت ميلاده بطريق التعيين ولكن يعرف وقت وفاته بالتعيين ، لأنه ولد مغموراً ، ومات مشهوراً ، فكان وقت الولادة غير معلوم على وجه التحقيق ، ووقت الوفاة كان معلوماً ، وإن الإمام ابن حزم على غير ذلك فقد عرف وقت ولادته وعين لا بالسنة فقط بل الشهر واليوم وجزء اليوم الذي ولد فيه .

كتب بخط يده إلي القاضي صاعد(٤) أنه ولد قبل طلوع الشمس وبعد سلام الإمام من صلاة الصبح آخر ليلة الأربعاء من آخر يوم في شهر رمضان وهو اليوم السابع من نوفمبر سنة أربعة وثمانين وثلاثمائة بطالع "العقرب"(٥) بمدينة "قرطبة" وتكاد تجمع المصادر على هذا التاريخ .

(١) صحيح البخاري بحاشية السندي "٢١٢٠" ، صحيح مسلم ج٣/١٦٨٢ .

(٢) أخرجه البخاري في الأدب المفرد ٨٥٠ .

(٣) ابن حزم حياته وعصره وآراؤه وفقهه ص٢٢ .

(٤) القاضي صاعد بن أحمد الجبائي الأندلسي المتوفى سنة ٤٦٢هـ وله كتاب مطبوع اسمه "طبقات الأمم" ، انظر ابن حزم حياته وعصره وآراءه وفقهه لابن زهرة ص٢٢ .

(٥) كتاب الصلة لابن بشكوال ج٢ ص٣٩٦ ، نفح الطيب للمقريء ج٢ ص٢٨٤ .

المطلب الثاني

أصله وأسرته

الإمام ابن حزم علا بعلمه ولم يعل بنسبه ولقد كان من أسرة لها شأن في الوزارة في الأندلس وكان هو وزيراً لبعض الأمراء ، ولكنه رأى الشرف والسلامة والعزة في أن ينصرف إلي العلم ، فعلا بالعلم ودوى في التاريخ اسمه إماماً في الفقه ومؤرخاً وكاتباً وشاعراً .

وأصل آبائه من إقليم "الزاوية" في قرية "منت ليشم" غرب الأندلس(١). سكن هو وآبائه "قرطبة" ونالوا فيها جاهاً عريضاً وكان والده أبو عمر أحمد بن سعيد(٢) أحد العلماء ومن وزراء الحاجب محمد بن عامر(٣) ومن وزراء ابنه المظفر(٤) من بعده . الإمام ابن حزم المكني بأبي محمد اسمه علي بن أحمد بن سعيد بن حزم بن غالب بن خلف بن معدان بن سفيان الفارسي ، مولى يزيد بن أبي سفيان صخر بن حرب بن أبي أمية بن عبد شمس الأموي القرشي وهو المعروف بيزيد الخير أخو معاوية ، وأكثر من ترجم لابن حزم يتفقون على أن أصله فارسي ، وأول من دخل الأندلس من هذه الأسرة خلف بن معدان في زمن عبد الرحمن بن معاوية بن هشام المعروف بالداخل ، وسكن قرية "منت لشم" من إقليم الزاوية من عمل "أوبنة" على بعد نصف فرسخ منها وهي من كورة "لبة" من غرب الأندلس(٥) ، وقد ولد أحمد بن سعيد والد المترجم له بقرية الزاوية(٦) ، فعليه يكون أحمد بن سعيد الوزير هو أول

(١) سير أعلام النبلاء للحافظ الذهبي (١٨٤/١٨ - ٢١٢)

- جذوة المقتبس في ذكر ولاية الأندلس (٨ - ٣) للحميدي .

- بغية الملتبس في تاريخ رجال أهل الأندلس (٤١٥ ، ٤١٨) للضببي .

- شذرات الذهب في أخبار من ذهب (٢٩٩/٢) لابن الفلاح .

- الذخيرة في محاسن الجزيرة المجلد الأول القسم الأول (١٦٧ - ١٨٠) لابن بسام .

- معجم الأدباء (٢٣٥/١٢ - ٢٥٧) لياقوت الحموي .

- نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب (٧٧/٢ - ٨٤) للمقريء .

(٢) هو أحمد بن سعيد بن غالب ، أبو عمر الوزير ، كان وزيراً للدولة العامرية ، ومن أهل العلم والأدب والخير وكان له في البلاغة يد قوية ، مات قريباً من سنة أربع مائة ، انظر جذوة المقتبس (١٢٥ - ١٢٧).

(٣) هو محمد بن أبي عامر ، أبو عامر ، أمين الأندلس في دولة الخليفة هشام المؤيد ، تلقب بالمنصور وكانت مدته في الإمارة بضعة وعشرين سنة توفيت سنة ٣٩٩ هـ انظر بغية الملتبس في تاريخ رجال أهل الأندلس (١١٥ - ١١٧).

(٤) هو عبد الله بن أبي عامر الملقب "بالمظفر" أمير الأندلس بعد أبيه في ٣٩٩ هـ انظر بغية الملتبس (٣٧٣ - ٣٧٤).

(٥) انظر جذوة المقتبس للحميدي ص ٣٠٨ ، الصلة لابن بشكوال ج ٢ ص ٣٩٥ ، وفيات الأعيان لابن خلكان ج ٣ ص ٢٢٥ ، معجم الأدباء لياقوت الحموي ج ٢ ص ٢٣٧ .

(٦) نفح الطيب للمقريء ج ٢ ص ٢٨٨ .

من سكن قرطبة من آل حزم وفيها ولد الإمام ابن حزم فيما ذكره "صاعد بن أحمد" (١) وقد إتفق أكثر المؤرخين القدماء الذين ترجموا للإمام ابن حزم على أن أصله فارسي، وقد ذكر بعض الكتاب (٢) أن الإمام ابن حزم كان إسبانياً يقول أولهم : "ومن ثم كان ابن حزم إسبانياً تعرب ثقافةً ، ولم يكن عربياً إسبانياً ابن أحد وزراء المنصور بن أبي عامر دكتاتور الأندلس ، وكان معاصروه وتلاميذه من شبه الجزيرة يرونه حفيداً لمولدين ، أي أنه ينحدر أباً من أصول إسبانية أسلمت وكانت الأم إسبانية على التأكيد ، لأن مسلمي الأندلس من الخلفاء منهم ولدوا لأمهات ينحدرون من سلالات إسبانية عريقة فهم من هذا الجانب إسبانيون جميعاً (٣) .

مناقشة هذا المستشرق :

قوله إن معاصريه وتلاميذه يرونه حفيداً لمولدين ليس صحيحاً ولم يروي هذا من معاصريه إلا أبو مروان حيان ، وأما تلاميذه ومن ترجموا له من غيرهم فهم على خلاف هذا ، ويكفينا تلميذه العالم الورع "الحميدي" الذي يقول في نسب أستاذه أن أصله من الفرس (٤) ، أما عن قوله وكانت الأم إسبانية على التأكيد فليس هنالك ما يثبت ذلك بالتأكيد ولم يتعرض لها ممن ترجموا له ، ولم يرد ذكرها على لسان الإمام ابن حزم في كتابه طوق الحمامة الذي بين فيه الكثير من جوانب حياته وكنا نتوقع أن يذكرها في أثناء كلامه عن الحب وماهيته ، إذ كيف يغيب عن ذهنه ذلك الحب الذي تكنه الأم من جوانحها ، ولكن لا يستبعد إسبانية أمه لإشارة منه في كتاب طوق الحمامة حيث قال: "دعني أخبرك أنني أحببت في صباي جارية لي شقراء الشعر فما استحسنت من ذلك الوقت سوداء الشعر ولو أنه على الشمس أو على صورة الحسن نفسه وإنني لأجد هذا في أصل تركيبتني من ذلك الوقت لا تؤاتيني نفسي على سواء ولا تحب غيره البتة ، وهذا العارض بعينه عرض لأبي رضي الله عنه وعلى ذلك جرى إلي أن وافاه أجله" (٥) ، فالأقرب أن أم الإمام ابن حزم كانت من ذوات الشعر الأشقر ، وفيه ترجيح على أن الإمام ابن حزم غير أسباني لأنه يرى أن محبته للشقراء

(١) تقدمت ترجمته صفحة ٢٥ رقم ٤.

(٢) أولهم المؤرخ الإسباني سانتش البرنس في كتابه ابن حزم قمة إسبانية ترجمة الدكتور الطاهر مكي ضمن كتابه دراسات عن ابن حزم وطوق الحمامة ص ١٤٣ ، وثانيهم الدكتور طه الحاجري في كتابه ابن حزم صورة أندلسية ص ١٤ - ١٧ ، والغريب أن يوافقهم أبو مروان حيان المؤرخ ، وابن سعيد صاحب المغرب.

(٣) انظر ابن حزم قمة إسبانية لسانتش البرنس

(٤) انظر جذوة المقتبس للحميدي ص ٣٠٨ .

(٥) طوق الحمامة ص ٩٨.

عارضة ، ثم بتبريره أن هذه الرغبة هي رغبة والده ، وجميع خلفاء بني أمية وهي خلاف جنسهم ، ولو صح أن أم الإمام ابن حزم إسبانية هل يكون إسبانياً بهذا؟ فعندنا نحن المسلمون النسب يكون من جهة الأب ، فهو فارسي الأصل .

يقول الثاني : على أنه ينبغي ألا يخدعنا هذا النسب المتسلسل الذي يذكره ياقوت والذهبي والمقريء وممن ترجم للإمام ابن حزم ، وإن أسند بعضهم حكاية هذا النسب إلي الإمام ابن حزم نفسه ، أو زعم أنه رآه بخطه فأمر الأنساب في المغرب - كما كان في المشرق - أمر تحييط به الريبة وتكتنفه الشبهة وصناعة الأنساب وتلفيقها وتنسيقها صناعة كانت رائجة في الأندلس ورواجها في العراق ... إلي أن يقول وربما كان للرجل من قوة شخصيته وكمال خلقه واعتداده بنفسه ما يجعله يتخرج عن مثل هذا الصنيع ، فلا يعدم من تلاميذه وإتباعه المكبرين له والمعجبين به من يغار له ، ويأنف عنه أن يكون في جملة الموالي ، فإذا يرى ما لا يراه لنفسه ، ويعرف من أمره ما ينكره هو ويتبرع له بنسب يجعله عربياً أصلياً بدلاً من أن يكون عربياً بالولاء... ، ويقول: "فمن الحق علينا ألا نطمئن بادئ ذي بدء إلي هذه السلسلة النسبية المشوقة التي تلحق بابن حزم والتي يخرج بفضلها من الجنس الإسباني المغلوب ويدخل في عداد العنصر الإسلامي الغالب ، ولعل أول ما يربينا في هذا النسب هو هذا النسب نفسه إذ ينتهي إلي يزيد المولى الفارسي ، فمتي كان الموالي عامة ممن يعنون بحفظ أنسابهم والحرص على تخليدها ؟ ثم يقول: وإذن فابن حزم خرج من أسرة من أهل أسبانيا الغربية وكانت تقيم في لبة وكانت تدين بالنصرانية وظلت على نصرانيتها بعد الفتح الإسلامي أمداً غير قصير حتى اعتنق حزم - الذي يحمل اسمه ويتنسب إليه صاحبنا - الإسلام في منتصف القرن الثالث الهجري فيما نقدر (١) .

مناقشته: قوله على أنه ينبغي ألا يخدعنا هذا النسب المتسلسل .

الصحيح أنه ينبغي ألا يخدعنا ما يقوله متعصبوا الغرب وأن ننظر في الأمور بعقولنا لا بمناظيرهم المنحرفة عن الحقيقة بدافع التعصب . وأما احتمال أحد تلاميذه أو المكبرين له صنع له هذا النسب لأنه أنف أن يكون في جملة الموالي فلم يتحقق هذا لأنه بالنسب المذكور مولى ليزيد بن أبي سفيان فالمحذور واقع فلا يصح هذا الاحتمال ، واحتمال أن الهدف من صنع هذا النسب إلحاقه بالجنس الغالب الفاتح للأندلس ولو من غير العرب أمر يبعد أن يرضاه لنفسه أو يرضاه له أحد ممن يكبره وهذه القمة بالانتساب إلي من بالمرتبة الأقل وهو يستطيع الأعلى لأنه على هذا المبدأ لا

(١) انظر ابن حزم صورة أندلسية للدكتور طه الحاجري ص ١٤ - ١٧ .

يمنع من الأعلى مانع كالأخر . أما قوله متى كان الموالي ممن يعنون بحفظ أنسابهم والحرص على تخليدها ؟

أولاً : أن هذا النسب ليس طويلاً ولا صعباً على هذه الأسرة - ذات الذكاء والحفظ - أن تحفظ أسماء آبائها وتتناقله وإن كانت من الموالي ويوجد مثل هذا كثير في أيامنا هذه من أسر ليست ذات نباهة ولا شأن .

ثانياً : إن ولاء هذه الأسرة ليست لأسرة خاملة فهو ليزيد بن أبي سفيان القرشي المعروف عند العرب والمعروف عند العرب أن مولاهم يعرف بهم فينتسب إليهم ويفتخر بهم .

وهنا سؤالاً مهماً لمن يدعون إسبانيته ؟ هل من الممكن أن يصمت وألا يشهر بهذا الإدعاء الذي ادعاه الإمام ابن حزم لنفسه أو ادعاه له غيره ، هل يصمت أعداءه الذين هم جل أهل الأندلس وقد عملوا المستحيل لإيذائه والتضييق عليه وتشويهه وطمس معالمه والنيل منه ؟ فنلاحظ هنا اللهجة العدائية .

والحقيقة أن الإمام ابن حزم فارسي الأصل وإليك أقوال من يعتد بهم : يقول الحميدي "علي بن أحمد بن سعيد بن حزم بن غالب أبو محمد أصله من الفرس وجده الأقصى في الإسلام اسمه يزيد مولى ليزيد بن أبي سفيان" (١)

وعلى هذا فهو قرشي بالولاء ، فارسي بالجنس وإنه لهذا الولاء كان يتعصب لبني أمية يعادي من عاداهم ويوالي من والاهم ، وإن ذلك من الوفاء الذي كان في معدن الإمام ابن حزم وكان متغلفاً في صميم نفسه حتى إنه أخص سجايه وأشرف ما عرف به .

يقول ابن بشكوال: (٢) علي بن أحمد بن سعيد بن حزم بن غالب الفارسي (٣) يقول ياقوت الحموي "علي بن أحمد بن سعيد بن حزم بن غالب بن صالح بن خلف بن سفيان بن يزيد الفارسي مولى يزيد بن أبي سفيان (٤) .

(١) انظر جذوة المقتبس للحميدي ص ٣٠٨.

(٢) ابن بشكوال :خلف بن عبد الملك بن مسعود بن بشكوال الخرجي الأنصاري الأندلسي ، أبو القاسم من أهل قرطبة ولد سنة ٤٩٤هـ وتوفي ٥٧٨هـ ولي القضاء في بعض جهات أشبيلية ، انظر تذكرة الحفاظ للذهبي ج٤ ص ١٣٣٩.

(٣) كتاب الصلة لابن بشكوال ج ٢ ص ٣٩٥.

(٤) معجم الأدباء ج ١٢ ص ٢٣٥ - ٢٣٦.

يقول ابن خلكان: ابن حزم الظاهري ، أبو محمد علي بن أحمد بن غالب بن صالح بن خلف بن معدان بن سفيان بن يزيد بن أبي سفيان ، وجده يزيد أول من أسلم من أجداده وأصله من فارس ، وجده خلف أول من دخل الأندلس من أجداده(١).

يقول الذهبي: أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم بن غالب بن صالح بن خلف بن معدان بن سفيان بن يزيد الفارسي الأصل الأموي اليزيدي القرطبي الظاهري صاحب التصانيف كان جدهم خلف أول من دخل الأندلس(٢).

يقول ابن كثير : "أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم بن غالب بن صالح بن خلف بن معدان بن سفيان بن يزيد مولى يزيد بن أبي سفيان صخر بن حرب الأموي أصل جده من فارس أسلم ، وخلف المذكور هو أول من دخل بلاد المغرب منهم(٣).

يقول ابن حجر: "علي بن أحمد بن سعيد بن غالب بن صالح بن خلف بن معدان بن أبي سفيان بن يزيد الفارسي أبو محمد القرطبي(٤). والذي يبدو من هذه الروايات المتواترة هو الصحيح ، والذين قالوا بضده فلا يلتفت إلي قولهم ، ولا نكذب الإمام ابن حزم فيما ذكره هو عن أسرته ، ولا قول لأحد فيها ولا يشتهر الإمام ابن حزم في قومه بالكذب ، وقد كان يصك خصومه صك الجندل ، فرموه بطول اللسان وحدة القول، ولم يرموه بالكذب ، ولقد كان أخص صفاته الوفاء ، والوفاء والكذب نقيضان لا يجتمعان، وما كان مثل الإمام ابن حزم في حاجة إلي إدعاء نسب يزدهي به ، وقد ازدهي بحلتين هما العلم والجاه بين الناس فلا مطمع له في هذا الباب .

(١) وفيات الأعيان لابن خلكان ج ٣ ص ٣٢٥.

(٢) تذكرة الحفاظ للذهبي ج ٣ ص ١١٤٦.

(٣) البداية والنهاية لابن كثير ج ١٢ ص ٩١ .

(٤) لسان الميزان لابن حجر ج ٤ ص ١٩٨ .

المطلب الثالث

نشأته

لقد نشأ الإمام ابن حزم - رحمه الله - في تنعم ورفاهية وتربى في القصور والجواري بين يديه ، ورزق ذكاءً مفرطاً وذهناً سيالاً .

قال "اليسع بن حزم" (١) (وكان في صباه يلبس الحرير ، ولا يرضى من المكانة إلا بالسرير) (٢).

ولما كان الإمام ابن حزم من أبناء الأكابر فمن الطبيعي أن ينال قسطاً وافراً من التعليم ، ولم يمنع هذا الترف الذي قضى فيه شبابه عقله الناضج من السعي وراء الكمال بمختلف الفنون.

بالنسبة لتحديد ميلاده ندرك أنه ولد في مجتمع ذي شأن عظيم وفي وسط يحرص أفراده كل الحرص على تخليد مواليدهم فيؤرخون ذلك بالدقة التي وصلتنا عن تاريخ ميلاد الإمام ابن حزم .

ولد في عهد وزارة أبيه للحاجب المنصور ابن أبي عامر في عصر من أزهى عصور الدولة الأندلسية ، فالدار التي ولد فيها بجانب الزاهرة كما حددها في طوق الحمامة بأنها تقع في الجانب الشرقي بقرطبة في الشارع الآخذ من النهر الصغير على الدرب المتصل بقصر الزاهرة (٣).

نشأ الإمام ابن حزم في هذا البيت في عز وجاه عريض فكان قصرًا له شرفات تطل على قرطبة وما كان يحيط بها من الحدائق ، ثم الحالة الاجتماعية في هذا القصر الكبير ، لأن المنصور عندما بنى الزاهرة ، وانتقل إليها أقطع ما حولها لوزرائه وكتابته ، وقواده ، فابتوا به مساكنهم على ما يتلاءم مع الزاهرة التي كانت في غاية الجمال فتتافس الشعراء بوصفها فكان لها أثر كبير في الحركة الأدبية ، ومن الغريب سكوت المصادر عن "أم" الإمام ابن حزم مع أنه من أبناء كبار الوزراء ثم هي أيضاً أم الوزير "أبي محمد" ثم العالم الأوحدي البحر ذي العلوم والمعارف كما وصفه الذهبي .

وقد كان كتاب الإمام ابن حزم "طوق الحمامة" مصدراً لكثير من معرفة أحواله ولكنه لم يتعرض لذكر أمه ، ولعل مرجع ذلك إلي أنه لم يعرفها معرفة

(١) تقدمت ترجمته صفحة ٣٣ رقم ١.

(٢) سير أعلام النبلاء (١٨ - ١٩٠).

(٣) انظر طوق الحمامة ص ١٦٨.

واعية وأنها ماتت وهو في سن الطفولة ، ولكن الظاهر أنها كانت إسبانية من ذوات الشعر الأشقر فاعله كان صورة في مخيلته فألفه وأحبه ولم يرق له سواه .

عاش الإمام ابن حزم حياته الأولى بين الجواري في قصر والده لا يغادره ولا يتصل بغير مربياته . فقد أدرك مع صغر سنه أن والده جعل منهن رقيات على حركاته داخل هذا القصر فكان لهذا الأثر الكبير في سلوكه بعد .

ثم إن والده كان حريصاً على تربيته وتنشئته ، فبعد أن تعلم القرآن ، وحفظ كثير من الأشعار وجهه إلي صحبة رجل "أبا علي الحسين بن علي الفاسي" مستقيم النفس والخلق فكان لهذه الصحبة الأثر القوي في سلوكه وعفته .

يقول عن نفسه أثناء حديثه عن قبح المعاصي: "ومع هذا يعلم الله وكفى به عليمًا أني بريء الساحة ، سليم الأديم صحيح البشرة ، نقي الحجرة ، وأنني أقسم بالله أجل الأقسام أني ما حللت مئزري على فرج حرام قط ، ولا يحاسبني ربي بكبيرة الزنا مذ عقلت إلي يومي هذا والله المحمود على ذلك والمشكور فيما مضى والمستعصم فيما بقي ... وكان السبب فيما ذكرته أني كنت وقت تأجج نار الصبا وشره الحداثة وتمكن غزارة الفتوة مقطوراً محضراً علي بين رقباء ورقائب ، فلما ملكت نفسي وعقلت صحبت أبا علي الحسين بن علي الفاسي(١) في مجلس أبي القاسم عبد الرحمن أبي زيد الأزدي(٢) شيخنا وأستاذنا رضي الله عنه وكان أبو علي المذكور عاقلاً عاملاً ممن تقدم في الصلاح والنسك الصحيح في الزهد في الدنيا والاجتهاد للآخرة وحسابها ، كان حصوراً لأنه لم تكن لها امرأة قط وما رأيت مثله جملة علماء وعملاً وديناً وورعاً فنفعني الله به كثيراً وعلمت الإساءة وقبح المعاصي(٣) كشف لنا أبو محمد سر هذه العفة والاستقامة في تلك الحياة الناعمة في ظل والده الذي أحاطه بال العناية التامة وجعل من مربياته رقيات عليه ، فكان حريصاً كل الحرص على تنشئته تنشئة قوية في تلك الرفاهية التامة ثم لما ترعرع قاده القيادة النفسية فوجهه إلي صحبة رجل مستقيم هو أبو الحسن الفاسي.

تلك هي نشأة الإمام ابن حزم الأولى صافية نقية لا يشوبها كدر ، ولكن ذلك العيش الهني وتلك السعادة التامة لم يستمر لهذا الناشئ الطري ولا لأسرته المترفة

(١) ستأتي ترجمته في شيوخ ابن حزم .

(٢) أبو القاسم مصري الجنس قدم الأندلس سنة ٣٩٤هـ كان رجلاً أديباً شاعراً حلواً حافظاً للحديث وأسماء الرجال والأخبار ، وخرج من الأندلس وقت الفتنة إلى مصر وبها توفي سنة ٤١٦هـ وكان قد ولد بها ليلة الجمعة مستهل شعبان سنة ٣٣٣هـ انظر الصلة لابن بشكوال ج ١ ص ٣٢٧.

(٣) طوق الحمامة لابن حزم ص ٢٧٤ ، ٢٧٥ .

فمنذ بلغ الخامسة عشر من عمره تقريباً عاش فترة من تاريخ الأندلس مملوءة بالاضطرابات والفتن .

فالإمام ابن حزم يصور لنا ما جرى لهم في هذه الأثناء بانتقالهم من دورهم المحدث إلى القديمة يقول: "ثم انتقل أبي رحمه الله من دورنا المحدث بالجانب الشرقي من قرطبة في ريفي الزاهرة إلى دورنا القديمة في الجانب الغربي من قرطبة ببلاط مغيث في جمادى الآخرة سنة ٣٩٩هـ (١).

إجتاح قرطبة الطاعون يقول الإمام ابن حزم "توفي أخي - رحمه الله - في الطاعون الواقع بقرطبة في شهر ذي القعدة سنة ٤١١هـ وهو ابن اثنين وعشرين سنة". ثم ماتت زوجته بعده بسنة ثم دهي صاحبنا ب وفاة والده بنفس الشهر الذي ماتت فيه زوجة أخيه تقريباً ، وقد كان امتحانهم مستمراً إلى حين وفاة والده (٢).

فكانت هذه الأرزاء التي أصابت الإمام ابن حزم عظيمة وفادحة ، وقد تبعها حدث دهاه قبل أن يبلغ العشرين من العمر يقول: "وعني أخبرك أنني أحد من دهي بهذه الفادحة ، وتعجلت له هذه المصيبة وذلك أنني كنت أشد الناس كلفاً وأعظمهم حباً تجارية لي ، كانت فيما خلا اسمها "نعم" وكانت أمنية المتمني وغاية الحسن خلقاً حلقاً وموافقة لي ، وكنت أباعذرها ، وكنا قد تكافأنا المودة ففجعنتي بها الأقدار، واخترمتها الليالي ، ومرت النهار ، وصارت ثالثة التراب والأحجار وسني حين وفاتها دون العشرين سنة ، وكانت هي دوني في السن فلقد أقمت بعدها سبعة أشهر لا أتجرد عن ثيابي ولا تفترلي دمة على جمود عيني وقلة إسعادها وعلى ذلك فو الله ما سلوت حتى الآن . ولو قبل فداء لفديتها بكل ما أملك من تالد وطارف ، وببعض أعضاء جسمي العزيزة على مسارعاً طائعاً ، وما طاب لي عيش بعدها ولا نسيت ذكرها ، ولا أنست بسواها ، ولقد عفي حبي لها على كل ما قبله ، وحرمت ما كان بعده (٣).

ولم يصف الجو للإمام ابن حزم بعد هذه الرزايا الفادحة بل تتابعت عليه المصائب كنظام انقطع سلكه ، فأعقب ما ذكرنا بزمان انتهاب جند البربر منازلهم ، وأجلوا منها ، يقول الإمام ابن حزم "ثم ضرب الدهر ضرباته وأجلينا من منازلنا ، وتغلب علينا جند البربر فخرجت من قرطبة أول المحرم سنة ٤٠٤هـ (٤).

(١) طوق الحمامة ابن حزم ص ٢٥٠ - ٢٥١.

(٢) المرجع السابق ص ٢٦٠ .

(٣) طوق الحمامة ابن حزم ص ٢١٦ - ٢١٧.

(٤) المرجع السابق ص ٢٥٢.

وجرت عليه تقلبات الأحوال ما بين نكب واعتقال إلي حوالي سنة ٤٠٦ هـ يقول - رحمه الله - "ووقع انتهاب جند البربر منازلنا في الجانب الغربي بقرطبة ونزلهم فيها. وتقلب بي الأمور إلي الخروج من قرطبة وسكني مدينة المرية (١) وتتابع الأحوال السياسية ونقلت الأخبار إلي صاحب المرية من لم يتق الله أن الإمام ابن حزم يسعى في القيام بدعوة الدولة الأموية ، فاعتقل الإمام ابن حزم أشهراً ثم أخرج على جهة التغريب فصار إلي حصن القصر ، ثم طاب له المقام عند أبي القاسم بن هذيل النجيب المعروف بابن المقفل فأقام عنده شهوراً في خير دار إقامة وبين خير أهل وجيران ، وعند أجل الناس همة وأكملهم معروفاً ، وأتمهم سيادة ، ثم ركب البحر قاصداً بلنسية (٢) عند ظهور أمير المؤمنين المرتضى عبد الرحمن بن محمد وسأكنه بها (٣) .

لما سكن الإمام ابن حزم بلنسية عند المرتضى أصبح وزيراً (٤) له وسار مع جيشه إلي قرطبة ووقفت أمامهم جيوش غرناطة فنشبت الحرب بين الفريقين وانتهت بهزيمة المرتضى لخيانة وقعت بجيشه ، ووقع الإمام ابن حزم في أسر الغرناطيين ثم أطلق سراحه (٥) وكان ذلك في أواسط سنة ٤٠٩ هـ.

فكان الإمام ابن حزم يتوقع دخول قرطبة دخول الفاتحين بهذا الجيش وقد نادي حاكم قرطبة بالأمان وعدل عن سياسة الشدة إلي سياسة اللين .
سمع الإمام ابن حزم بهذا النداء وتوجه إلي قرطبة يقول "دخلت قرطبة في شوال سنة ٤٠٩ هـ فنزلت على بعض نساءنا (٦) .

عاد الإمام ابن حزم إلي قرطبة وهو في السادسة والعشرين من عمره وقد قاسى خلال العشر سنين الماضية من عمره ألوان المحن والمصائب فكان لها الأثر القوي على تكوين شخصيته ونضوجه ، فتابع بناء حياته التي بلغ الآفاق وصار إماماً ، ومع هذا لم تنقطع آماله السياسية فكان على صلة بجماعة الأمويين ، لأنه يرى أحقيتهم بالإمامة .

(١) المرية: راجع صفحة ١٤.

(٢) بلنسية : راجع صفحة ١٤.

(٣) انظر طوق الحمامة ص ٢٦١ ، ٢٦٢.

(٤) ابن حزم الأندلسي لسعيد الأفغاني ص ٢٧ ، ابن حزم الأندلسي للدكتور عبد الكريم خليفة ٦٣.

(٥) انظر ابن حزم الأندلسي للدكتور عبد الكريم ص ٥٤ ، ٥٥.

(٦) طوق الحمامة ص ٢٥٢.

ساعات الأحوال بعد ذلك في الأندلس وتعاقب الأمراء من العلويين ، إلي أن اتفق أهل قرطبة على رد الأمر لبني أمية ، وصار الإمام ابن حزم وزيراً ولكنها كانت مدة قصيرة (١) انتهت بإلقائه في غياهب السجون .

وجاء من بعده وكان في مدينة مالقة (٢) وتأخر عن دخول قرطبة باختياره وعين عليها أميراً فأتىح للإمام ابن حزم أن يخرج من السجن ، ولكن قرطبة كانت في أشد حالات الفوضى والاضطراب (٣).

فأطيح بهشام المعتد بالله في ذي العقدة سنة ٤٢٢هـ ونودي في قرطبة بأن لا يبقى بها أحد من بني أمية (٤) وبانتهاء المعتد بالله تنتهي وزارة الإمام ابن حزم وبعدها ترك السياسة ، أو تركته على الصحيح كما رأينا بانتهاء وزارته الأولى بوقوعه في الأسر ، والثانية بالسجن ، والثالثة بالإطاحة بعرش المعتد بالله وإجلاء بني أمية من قرطبة ومطاردتهم وهم الذين يتعصب لهم ابن حزم ، وينتمي بالولاء لهم. فأدرك بعد تلك التجارب أن في الإعراض عن السياسة ولأوائها راحة لبدنه وهدوءاً لفكره ، وأن في الخلوص إلي العلم وطلبه لذة لا يدركها الملوك ، وفي الجهاد الفكري أنس غريته ، وأمن سريرته فلا يشك في صدق مودته فنال في هذا المسلك ما لم ينله غيره ، وإن الناظر إلي حال الإمام ابن حزم في نشأته الأولى ثم حاله فيما بعد ليدهش لما أصابه من تقلبات الأحوال ، وعدم تخاذله أمامها ويدرك أن حياته صورة للإرادة التي لا تعرف التردد .

المطلب الرابع : صفاته

الإمام ابن حزم آتاه الله من الصفات ما يمكنه من فتح نور المعرفة والاستضاء به ، والاتجاه معه إلي أن قضى نحبه ، وكل مخايله ومواهبه تجعل منه العالم الذي فاضت بحوثه ، وتناقلت الأجيال كتبه ، وكان له لون خاص قائم به في الفكر الإسلامي ، قد تميز به ولم يشركه فيه سواه .

وأول هذه الصفات أو تلك المواهب حافظة قوية مستوعبة ، جعلته يستولى على أبواب العلم استيلاءً ، فإن الحافظة القوية هي السبيل الأول الذي يمكن العالم من السيطرة الفكرية على ما يقرأ ، بحيث يربط أقصاه بأدناه ، وأوله بآخره ، وأجزائه

(١) انظر تذكرة الحفاظ للذهبي ج ٣ ص ١١٤٨ ، معجم الأدياء لياقوت ج ١٢ ص ٢٣٧ .

(٢) مالقة بفتح اللام والقاف كلمة عجمية ، وهي مدينة بالأندلس على شاطئ البحر انظر معجم البلدان ج ٥ ص ٤٣ - القاموس ج ٣ ص ٢٨٤ .

(٣) انظر جذوة المقتبس للحميدي ص ٢٤ ، ٢٥ ، ابن حزم صورة أندلسية للدكتور طه الحاجري ١٤٢ .

(٤) جذوة المقتبس ص ٢٨ .

بعضها ببعض ، فيوائهم بينها إن كانت متناسقة متلافية ، وبين التناظر فيها إن كانت غير متآخية وقد آتى الله سبحانه وتعالى الإمام ابن حزم حافظة واعية ، فقد حفظ أحاديث رسول الله ﷺ ورتب مصادرها ، وارتفع إلى مرتبة الحفاظ الكبار ، وعلم من آثار التابعين والصحابة ما جعله فريد وحده في المعرفة بفقههم ، واستخراج الأحكام ، والبناء عليها بما يشع له منهاجه الفقهي ، وكان حافظاً لسير الأولين يربط علومه التي استحفظها ، ورعاها بعضها ببعض في تناسق فكري إختص به من بين معاصريه من العلماء والفقهاء .

ولقد كان له مع ذلك بديهة حاضرة ، تجيء فيها إرسال المعاني في وقت الحاجة إليها ، وتتنال عليه انشبالاً فتسعه في الجدال ، وتنصره في النزال الذي كان يختار خصومه مع من يؤيدهم من الأمراء والحكام ميدانه فما يبلغون شأوه ولا يصلون إلى غايته ولقد خصه الله تبارك وتعالى بأمرين :

الأول : الاستيعاب والإطلاع والموازنة بين كل ما قرأه وإنه لكثير .

الثاني : حضور البديهة ، واستحضار المعلومات في وقت الحاجة إليها والمصارعة بالإجابة عند الحاجة .

ومع هذه البديهة الحاضرة التي تسعه بالمعلومات الشاردة في وقت الحاجة إليها ، وتلك الحافظة الواعية المستوعبة ، مع هاتين الميزتين قد أوتي عمق تفكير وغوصاً على الحقائق وقوة تأمل .

وإذا تصفحت رسالته طوق الحمامة تجده يرد الظواهر إلى بواعثها النفسية محاولاً في ذلك أن يكشف عن النواميس النفسية التي تسير الإنسان في عواطفه الإنسانية .

وتجده يتكلم عن الفضائل في رسالته مداواة النفوس التي هي علاج نفسي لعيوب الأخلاق تجد عنده النظر العميق يقول - رحمه الله - ومن العجائب أن الفضائل مستحسنة ومستثقلة ، والردائل مستقبحة ومستحبة (١).

وهذه المواهب الفكرية التي حباه الله بها يؤمن بأنها من عند الله وعلى الإنسان شكر هذه النعمة والقيام بحقوقها ، وإن لم يقدّر بحقوقها كان كافراً بها ، ويوجه اللوم الشديد إلى الذين يغترون بمواهبهم يقول - رحمه الله - وأن أعجبت بعلمك ، فاعلم أنه لا خصلة لك فيه ، وإنه موهبة من الله مجردة وهبك إياها ربك

(١) انظر رسالة مداواة النفوس لابن حزم ص ٦٦.

تعالى ، فلا تقابلها بما يسخطه فاعله ينسيك ذلك بعلة يمتحنك بها تولد عليك نسيان ما علمت وحفظت(١).

وقد اتصف - رحمه الله - بالصبر والجلد والمثابرة ، فقد نشأ في بيت وزارة كما رأينا ، وما أن شب على الطريق وأدرك الدنيا ، وتطلعت نفسه لما فيها حتى رأى الدهر يقلب لأبيه ظهر المجن ، والفتن تضرب بجراحاتها ، فتزعج مقامهم. فعند بلوغه الخامسة عشر من عمره في عام ٣٩٩ هـ وقعت الفتن التي اضطرتهم إلى هجر دورهم والانتقال إلى دور أخرى لهم ، ثم مات أبوه ثم اضطروا من بعد ذلك إلى الانتقال من قرطبة إلى المرية ثم التطواف من بعد مغرباً أو مختاراً ، وهذا أقنعه من صباه بأن السياسة مركب خشن وأن ما يناله ذو الطمع فيها من خيراتها يهون بجوار ما ينتابه من جرائها ، لذلك انصرف منذ صباه إلى العلم ولم يمنعه من طلبه سجن ولا تغريب ، وجعل همه ذلك الطلب لله لا لأحد سواه ، ولذلك جد فيه وصبر في طلبه على ما كان يلقاه من أذى الأمراء.

وكانت أميز صفات الإمام ابن حزم الإخلاص ، فكان لفرط إخلاصه يباعد بين نفسه وبين العجب بها والاغترار بما وصل إليه من علم ، وكان يعتبر العجب آفة الإخلاص ، وآفة الريا ، وآفة الأخلاق الفاضلة ، ويدعو كل امرئ إلى تقدير خطئه قبل تقدير صوابه ، فإن ذلك يدفعه إلى التضامن ، والتضامن للحق سبيل الإخلاص في طلبه يقول - رحمه الله - إن أعجبت بأرائك فتفكر في سقطاتك ، وفي كل رأي قدرته صواباً فخرج بخلاف تقديرك ، وأصاب غيرك وأخطأت أنت ، فإنك إن فعلت ذلك فأقل أحوالك أن يوازن سقوط رأيك صوابه ، فتخرج لا لك ولا عليك ، والأغلب أن خطأك أكثر من صوابك ، وهكذا كل أحد من الناس بعد النبيين(٢).

فكان الإمام ابن حزم يجتهد ويعمل ويدرس ويبحث وينتج ولا يبالي أمدحه الناس أو ذموه .

فالإخلاص كان سبباً في الصفة التي اشتهر بها وهي الصراحة في الحق ينطق بقول الحق ، لا يهمله رضي الناس أم سخطوا ، ويستوي عنده الإيذاء والثناء ، مادام أن الحق يدفعه إلى أن يقول ما قال ، ويوجب عليه أن ينطق غير محجب.

ومن صفات الإمام ابن حزم كان يدعو إلى عدم معارضة الناس والاستئناس فيما لا يضر في الدين والدنيا يقول - رحمه الله - وإياك ومخالفة المجلس ومعارضة

(١) انظر مداواة النفوس لابن حزم ص ٥٠ ، ٥١ .

(٢) انظر مداواة النفوس لابن حزم ص ٥٠ .

أهل زمانك فيما لا يضرّك في دنياك ولا في أخراك وإن قل ، فإنك تستفيد بذلك الأذى والمنافرة والعداوة ، وربما أدى ذلك إلى الضرر العظيم دون منفعة أصلاً وإن لم يكن بد من إغضاب الناس أو إغضاب الله عز وجل ولم يكن لك مندوحة عن منافرة الخلق أو منافرة الخالق ، فأغضب الناس ونافرهم ولا تغضب ربك ولا تتأخر الحق(١).

ومع هذا كله كانت معه حدة شديدة وذلك لسببين:

الأول : ما أحسه من إرادة السوء به وإنزال الأذى ، وأي أذى أشد وأعظم أثراً في نفس العالم أن يرى جهوده وثمرات فكره تحترق بين يديه ، ويشهد العالم احتراقها ، إن ذلك يخرج الحليم عن حلمه ، فكان بلا شك كيد خصومه له من أسباب حدته ، بل إنه أعظم أسبابها .

الثاني : الإمام ابن حزم أصيب بمرض ولصراحته المعهودة أباح به يقول - رحمه الله - لقد أصابتني علة شديدة ولدت في ربواً في الطحال شديداً ، فولد ذلك على الضجر ، وضيق الخلق ، وقلة الصبر ، والترق أمراً جاشت منه نفسي فيه ، إذ أنكرت تبدل خلقي ، واشتد عجبي من مفارقتي لطبيعي ، وصح عندي أن الطحال موضع القرع ، وإذا فسد تولد ضده(٢).

ومن صفاته الخلقية :

الأولى - الوفاء : فقد كان وفياً لأصدقائه وشيوخه ، ولكل من إتصل به ، يقول - رحمه الله - لا أقول ذلك ممتدحاً ، ولكن آخذ بأدب الله عز وجل (وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ)(٣) لقد منحني الله عز وجل من الوفاء لكل من يمت إلي بلقية واحدة ووهبني من المحافظة لمن يتذمر مني ولو بمحادثة ساعة حظاً أني له شاكر حامد ، ومنه مستمد ومستزيد وما شيء أثقل على من الغدر ، ولعمري ما سمحت نفسي قط في الفكرة في إضرار من بيني وبينه أقل ذمام ، وإن عظمت جريرته ، وكثرت إلي ذنوبه ، ولقد دهمني من هذا غير قليل ، فما جزيت على السوء إلا بالحسنى والحمد لله على ذلك كثيراً(٤).

الثانية - اعتزاز بالنفس من غير خيلاء ولا عجب : وهذه العزة قد صقلتها فيه أمور .

(١) مداواة النفوس لابن حزم .

(٢) انظر مداواة النفوس لابن حزم ص ٥٤.

(٣) سورة الضحى الآية ١١ .

(٤) انظر طوق الحمامة ٨٢.

١. ما آتاه الله من مواهب عقلية يشعر معها بأنه فوق أقرانه من العلماء وفوق الأمراء .
٢. ابتعاده عن السياسة وحبس مطامعها ولجوءه إلي العلم فقد آوى إلي ركن العزة النفسية الحصين .
٣. يسار العيش الذي منّ الله به عليه فلم يجعله بحاجة إلي عطاء أمير أو وزير ، فاستغنى عن الناس واعتز بالله .

المبحث الثاني

شيوخه و تلاميذه وتأثره بالعلماء السابقين وتأثيره على

من بعده

وفيه أربع مطالب

المطلب الأول : الخلاف في وقت تعلم الإمام بن حزم

المطلب الثاني : شيوخه و تلاميذه

المطلب الثالث : تأثره بالعلماء السابقين

المطلب الرابع : تأثير الإمام بن حزم على من بعده

المطلب الأول

الخلاف في وقت تعلم الإمام ابن حزم

يروى ياقوت الحموي في معجم الأدباء عن أبي محمد بن العربي (١) أنه بلغ السادسة والعشرين ولم يبتدئ بتعلم الفقه ، كما يروي لنا سبب تعلمه: ونص الرواية الأولى: "وأقام - أبو محمد - في الوزارة من وقت بلوغه إلي انتهاء سنة ستا وعشرين سنة وقال: إنني بلغت إلي هذا السن وأنا لا أدري كيف أجبر صلاة من الصلوات (٢).

ونص الرواية الثانية: سبب تعلمه الفقه: أخبرني الشيخ الإمام أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم أن سبب تعلمه الفقه أنه شهد جنازة لرجل كبير من أخوان أبيه فدخل المسجد قبل صلاة العصر والخلق فيه فجلس ولم يركع فقال له أستاذه - يعني الذي رباه - بإشارة أن قم فصل تحية المسجد فلم يفهم فقال له بعض المجاورين له: أبلغت هذه السن ولا تعلم أن تحية المسجد واجبة ؟ وكان قد بلغ حينئذ ستة وعشرين عاماً ، قال : فقممت وركعت وفهمت إذاً إشارة الشيخ لي بذلك . قال : فلما انصرفنا من الصلاة على الجنازة إلي المسجد مشاركة للأحباء من أقرباء الميت ودخلت المسجد فبادرت بالركوع فقبل لي : إجلس إجلس ليس إذاً وقت صلاة ، فانصرفت عن الميت وقد حزنت ولحقني ما هنت على به نفسي وقلت للأستاذ دلني على دار الشيخ الفقيه المشاور أبي عبد الله بن دحون (٣) فدلني فقصدته من ذلك المشهد وأعلمته بما جرى فيه وسألته الابتداء بقراءة العلم ، واسترشده فدلني على كتاب الموطأ لمالك بن أنس - رضي الله عنه - فبدأت عليه قراءة من اليوم التالي لذلك اليوم ثم تتابعت قراءتي عليه وعلى غيره نحو ثلاثة أعوام وبدأت بالمناظرة (٤) .

هاتان الروايتان لا تتفقان مع ما ثبت من تعلمه في صغره ، وتلقيه الحديث مبكراً كما أسلفنا .

ولو سلمنا جدلاً عدم معرفة جبر الصلاة - بسجود السهو - لقله وقوعه فإن سياق قصة حياته يناهز جهله بتحية المسجد ، ويجبر الصلاة على معنى قضاء الفائت منها ، أو إتمامها لما أحاطه به والده من العناية ، فقد عني بتربيته وتعليمه فلا يعقل أن يتركه بدون معرفة للمعارف الأولى في الفقه في الصلاة فرائضها ونوافلها .

(١) هو عبد الله بن محمد الأشبيلي المالكي ، الوزير رحل إلى المشرق ومكث بالشام مدة ، وفي عودته إلى المغرب توفي بمصر في محرم سنة ٤٩٣ هـ انظر شذرات الذهب ج٤ ص ١٤١/١٤٢ .

(٢) معجم الأدباء لياقوت الحموي ج٢ ص ٢٤٠ ، ٢٤١ .

(٣) تأتي ترجمته في شيوخ الإمام ابن حزم ص ٥٩ .

(٤) انظر معجم الأدباء لياقوت الحموي ج٢ ص ١٢٤ ، ٢٤١ ، انظر تذكرة الحفاظ للذهبي ج٣ ص ١١٥١ ، ١١٥٠ .

ثم ارتياده مجالس العلماء لطلب الحديث في المساجد مما يبعد جهله بتحية المسجد ، والأخذ بهذه الرواية يؤدي حتماً إلى القول إنه لم يدخل المسجد قبل ذلك ، أو لم يدخله إلا قليلاً ، ولم يصل جماعة وهذا غير معقول بالنسبة له أن يجهل ذلك وقد بلغ السادسة والعشرين .

يقول أبو زهرة : إن هذه السنن لا تتفق مع السياق التاريخي ، ووجه عدم اتفاقها أنه ثبت أن الإمام ابن حزم تلقى عن أحمد بن الجصور الحديث ومستحيل أن يعرف رواية الحديث ولا يعرف تحية المسجد ، وأيضاً ثبت أن أبا الحسين الفاسي كان يذهب به إلى مجلس كبار العلماء فمستحيل أن يكون مع تلك العناية يجهل تحية المسجد ، وإن طبيعة الحياة التي كان يحياها ابن حزم تكذب ذلك ، فلقد كان ابن حزم ابن وزير كبير من كبراء الدولة وقد بلغ سن الرجولة فلا يمكن أن يكون جاهلاً بتحية المسجد ، لأن ذلك يؤدي حتماً إلى أن نقول أنه لم يدخل المسجد قبل ذلك أو لم يدخله إلا نادراً ، وذلك غير معقول بالنسبة لرجل ذي جاه بلغ السادسة والعشرين ، وإن الخبر في ذاته يحمل دليل بطلان أن يكون ابن حزم في هذا السن ، وذلك لأنه ذكر أن مربيته وأستاذه قد صحبه ، وأشار إليه بذلك ، وحتى كان في السادسة والعشرين وبلغ مرتبة الوزارة لا يذكر الناس من يشير إليه على أنه مربيته .

وأن المعقول أو القريب من المعقول أن يكون ذلك وهو في السادسة عشر من عمره ، وأن يكون في الكلام تصحيف من النساخ ، فقد كتبوا بدل العشر عشرين (١).

جاء في تذكرة الحفاظ : بينما نحن في الدرس إذ بأبي محمد ابن حزم يسمعنا ويتعجب ، ثم سأل الحاضرين مسألة من الفقه جووب فيها فاعترض في ذلك فقال له بعض الحضار : هذا العلم ليس من "منتحلائك" فقام وقعد ودخل منزله فعكف ، ووكف منه وابل فما كف وما كان بعد أشهر قريبة حتى قصدنا إلى ذلك الموضع مناظراً أحسن مناظرة وقال فيها أنا أتبع الحق ولا أتقيد بمذهب (٢).

هذه الرواية تؤكد كونه بدأ دراسة الفقه في السادسة عشرة من عمره مع بداية سماعه للحديث ، لأن الحديث والفقه أخوان متلازمان لا يمكن أن يطلب الحديث إلا مع الفقه ، وأن ما ذكر في الروایتين عن ابن العربي فيه تصحيف من النساخ لأنه روي بعد أشهر من وقوع القصة ، وكان عمره آنذاك بين ثلاثة وعشرين

(١) انظر ابن حزم حياته وعصره آراؤه وفقهه ، أبو زهرة ٣٣ ، ٣٤ .

(٢) تذكرة الحفاظ للذهبي ج٣ ص ١١٤٨ .

وخمسة وعشرين تقريباً ، وقد قال إنه لا يتقيد بمذهب ، والمعروف أنه درس الفقه المالكي بادئ الأمر ، لأنه هو المذهب السائد في المغرب ، وقد ابتدأ دراسته بموطأ مالك على ابن دحون كما أسلفنا ، ثم تحول شافعيّاً فاشتهر به قبل أن يذهب إلى مذهب أهل الظاهر(١) .

وبهذا يترجح أنه بدأ دراسة الفقه مبكراً ، وأنه بدأ يستغل برأيه ويجتهد بعد أن تجاوز الرابعة والعشرين من عمره أو في أثناءها .

(١) انظر لسان الميزان لابن حجر ج٤ ص١٩٨ .

المطلب الثاني

شيوخه وتلاميذه

لقد بدأ الإمام ابن حزم حياته العلمية مبكراً ، فتعلم القرآن والأدب والشعر والمنطق منذ نعومة أظافره ، ثم سمع الحديث ولم يناهز السادسة عشرة من عمره ، فسمع من شيوخ كثير ، وأخذ عن أعلام الأندلس في مختلف الفنون . فمن شيوخه :

١ - أبو عمر أحمد بن محمد بن سعيد المعروف بابن الجسور-محدث مكثر، وهو أول شيوخ الإمام ابن حزم مات "ببلاط مغيث" في ذي القعدة عام ٤٠١هـ (١).

٢ - مسعود بن سليمان بن مفلت أبو الخيار ، فقيه عالم زاهد يميل إلى الاختبار والقول بالظاهر (٢).

٣ - عبد الله بن إبراهيم بن محمد بن عبد الله بن جعفر الأموي المعروف بالأصيلي أبو محمد ، من كبار أصحاب الحديث ، سمع من كبار العلماء بالمشرق وكان متقناً للفقه والحديث ألف كتاباً كبيراً في "دلائل المسائل" مات بالأندلس قريباً من سنة أربعمائة (٣).

٤ - عبد الله بن ربيع بن عبد الله التيمي أبو محمد ، سكن قرطبة ، سمع أبا بكر محمد بن معاوية ، وأبا علي إسماعيل بن القاسم القالي اللغوي ، مات سنة ٤١٥هـ (٤).

٥ - محمد بن الحسن المذبحي ، أبو عبد الله ، يعرف بأبي الكتاني له مشاركة قوية في علم الأدب والشعر ، وله تقدم في علوم الطب والمنطق ، وله كلام في الحكم ورسائل في كل ذلك ، وله كتب معروفة وله كتاب سماه "محمد وسعدي" مليح في معناه وله أشعار ، عاش بعد الأربعمائة بمدة وأخذ منه علم المنطق (٥).

٦ - أبو القاسم عبد الرحمن بن أبي يزيد الأزدي المصري المولود ليلة الجمعة مستهل شعبان سنة ٣٣٣هـ وتوفي بمصر عام ٤١٦هـ ، قدم إلى الأندلس وكان رجلاً أديباً شاعراً حلواً حافظاً للحديث وأسماء الرجال والأخبار خرج من

(١) بغية الملتبس ١٥٤ الضبي .

(٢) جذوة المقتبس ٣٥٠ للحميدي .

(٣) المرجع السابق ٢٥٧ ط الدار المصرية للتأليف والترجمة .

(٤) المرجع السابق ٢٦١ .

(٥) المرجع السابق ٢٤٩ .

الأندلس أيام الفتنة إلى بلده وبها توفى ، تلقى منه الإمام ابن حزم الحديث والنحو واللغة (١).

٧ - وكان مصاحباً للشيخ أبي عمر يوسف بن عبد الله بن محمد "بن عبد البر" النمري الفقيه الحافظ ، عالم بالقراءات وبالخلافاً في الفقه وعلوم الحديث ، قديم السماع كثير الشيوخ على أنه لم يخرج من الأندلس ، له مؤلفات نافعة وكان يميل في الفقه إلى مذهب الشافعي ، من مؤلفاته التمهيد لما في الموطأ من المعاني والمسانيد ، الاستيعاب في أسماء المذكورين في الروايات والسير والمصنفات من الصحابة وغير ذلك ، كان مولده سنة ٣٦٢هـ ووفاته سنة ٤٦٠هـ (٢).

٨ - وسمع من يحيى بن عبد الرحمن بن مسعود ابن وجه الجنة ، كنيته أبي بكر ويعرف بوجه الجنة ، كان يلتزم صناعة الخرازين ولد سنة ٣٠٤هـ وتوفي سنة ٤٠٢هـ . وهو من أهل قرطبة (٣) فهو أعلى شيخ عنده .

٩ - ومن يونس بن عبد الله بن مغيث القاضي ، أبو الوليد قاضي الجماعة بقرطبة يعرف بابن الصغار من أعيان أهل العلم ولد سنة ٣٣٨هـ وتوفي سنة ٤٢٩هـ وكان فاضلاً محققاً من كتبه المنقطعين إلى الله (٤).

١٠ - ومن حمام بن أحمد بن حمام القرطبي القاضي المحدث ولد سنة ٣٥٧هـ وتوفي ٤٢١هـ قال عنه الإمام ابن حزم كان واحد عصره في البلاغة ، وفي سعة الرواية ضابطاً لما قيده (٥).

١١ - ومن محمد بن سعيد بن محمد بن عمر بن سعيد بن نبات الأموي القرطبي ولد سنة ٣٣٥هـ وتوفي سنة ٤٢٩هـ شيخ من شيوخ الحديث ، وكان مفتياً بالآثار جامعاً للسنن ، ثقة في روايته ضابطاً لكتبه ، وكان شيخاً فاضلاً صالحاً ديناً ورعاً (٦).

(١) انظر الصلة لابن بشكوال ج ١ ص ٣٣٧ ، طوق الحمامة ٨١ ، ١٨٢ ، ٢٧٥ .

(٢) انظر البداية والنهاية لابن كثير ج ١٢ ص ٩٢ ، بغية الملتبس للضبي ص ٣٦٧ - ٣٦٩ ، الصلة لابن بشكوال ج ٢ ص ٦٤٠ - ٦٤٢ .

(٣) انظر جذوة المقتبس ص ٣٧٧ ، الصلة ج ٢ ص ٦٢٧ .

(٤) انظر الصلة لابن بشكوال ج ٢ ص ٦٤٦ ، ٦٤٧ .

(٥) انظر الصلة ج ١ ص ١٥٣ .

(٦) المرجع السابق ج ٢ ص ٤٩٢ ، ٤٩٣ .

- ١٢ - ومن عبد الله بن محمد بن ربيع بن صالح التميمي : أبا محمد من أهل قرطبة ولد سنة ٣٣٠هـ وتوفي سنة ٤١٥هـ روي عنه كثير من أهل الأندلس ورحل إلى المشرق فحج ، وروي عن جماعة من علمائه ورجع إلى الأندلس فروى عنه كثير وكان ثقة ثباتاً ديناً فاضلاً (١).
- ١٣ - ومن عثمان العمري البطلوسي أبو محمد نحوي فقيه ، شاعر ، أديب مات حوالي ٤٤٠هـ (٢).
- ١٤ - وسمع من أبي عمر أحمد بن محمد الطلمنكي ولد سنة ٣٤٠هـ وتوفي سنة ٤٢٨هـ كان فقيهاً حافظاً ومحدثاً ، ينسب إلى بلده وكان إماماً في القراءات مذكوراً ، وثقة في الروايات رحل فسمع من كثير من العلماء في المشرق وسمع بالأندلس كثيراً (٣).
- ١٥ - ومن عبد الله بن يوسف بن نامي الرهوني القرطبي أبا محمد ولد سنة ٣٤٨هـ وتوفي سنة ٤٣٥هـ كان رجلاً صالحاً خيراً فاضلاً لا يقف بباب أحد ، وكان مجوداً للقراءات حسن الخلق شديد الانقباض جيد العقل (٤).
- ١٦ - ومن أحمد بن قاسم بن محمد بن قاسم بن أصبغ البياني أبا عمر المتوفى سنة ٤٣٠هـ من أهل قرطبة روى عن أبيه عن جده جميع ما رواه ، كان عفيفاً ، طاهراً شديد الانقباض (٥).
- ١٧ - ومن أحمد بن عمر بن أنس المعروف بابن الدلاني ولد سنة ٣٩٣هـ وتوفي ٤٧٨هـ من أهل المرية أبا العباس ، رحل إلى المشرق ، وجاور بالبيت الحرام أعواماً ، وسمع من أهل الرواية من أهل الأمصار الواردين إلى مكة ورجع إلى الأندلس فسمع منه جماعة منهم أبو عمر ابن عبد البر (٦).
- ١٨ - ومن عبد الله بن محمد بن يوسف المعروف بابن الفرضي ، أبو الوليد القاضي كان حافظاً متقناً عالماً ذا حظ من الأدب سمع بالأندلس وبمصر

(١) الصلة لابن بشكوال .

(٢) الجذوة ص ٢٦٣ ، الصلة ج ١ ص ٢٦٦ .

(٣) الجذوة ص ١١٤ ، بغية الملتبس ص ١٥١ .

(٤) انظر الصلة ج ١ ص ٢٦٢ .

(٥) انظر الصلة ج ١ ص ٥٢ .

(٦) الجذوة ص ١٣٦ - ١٣٩ ، الصلة ج ١ ص ٦٩ ، ٧٠ .

- وبمكة وله تاريخ في العلماء والرواة للعلم بالأندلس وغيره ، مات في الفتنة أيام دخول البربر قرطبة سنة ٤٠٠هـ (١).
- ١٩ - ومن عبد الله بن عبد الرحمن ابن الحجاج المعافري القاضي، أبو عبد الرحمن فقيه ، محدث من بيت قضاء وعلم وجلالة ومنازلهم ببلنسية روى عنه الإمام ابن حزم الحديث وقال هو أفضل قاضي رأيته ديناً وعقلاً وتصاوفاً مع حظه الوافر من العلم توفي سنة ٤١٧هـ (٢).
- ٢٠ - ومن عبد الرحمن بن عبد الله الهمداني الوهراني ويعرف بابن الخراز من أهل بجانة ، أبا القاسم ولد سنة ٣٣٨هـ وتوفي سنة ٤١١هـ كان رجلاً صالحاً منقبضاً سمع منه في مسجد القمري في قرطبة (٣).
- ٢١ - ومن محمد بن عبد الله بن هاني بن هابيل اللخمي البزار ، أبا عبد الله، ولد سنة ٣٢٨هـ وتوفي سنة ٤١٠هـ وهو من أهل قرطبة ، رحل إلى المشرق فحج وكتب الحديث عن كثير وكان فقيهاً محدثاً كثير الحفظ لأخبار فقهاء الأندلس (٤).
- ٢٢ - ومن محمد بن إسحق أبو عبد الله كان رجلاً صالحاً مذكوراً وعلى طريقة من الزهد ، وله كلام يدل على إخلاصه وصدق طويته (٥).
- ٢٣ - ومن علي بن سعيد العبدي أبا الحسن ، وهو من أهل الفضل والمعرفة والأدب وهو من أهل جزيرة ميورقة ، رحل إلى المشرق فحج ودخل بغداد توفي سنة ٤٩٣هـ (٦).
- ٢٤ - وقرأ الفقه على أبو محمد عبد الله بن يحيى بن أحمد الأموي ابن دحون الفقيه الذي كان عليه مدار الفتوى بقرطبة (٧)، وكان حافظاً للرأي على مذهب مالك عارفاً بالشروط وعللها مشاوراً فيها ، توفي سنة ٤٣١هـ.

(١) انظر الجذوة ص ٢٥٤ - ٢٥٦.

(٢) انظر طوق الحمامة ٢٩٤ - ٢٩٥ ، الجذوة ص ٢٦٢ ، الصلة ج ١ ص ٢٢٥ ، ٢٥٦.

(٣) الصلة ج ١ ص ٣٠٥.

(٤) انظر الصلة ج ٢ ص ٢٧٦.

(٥) انظر الجذوة ص ٤٤ ، طوق الحمامة ص ٣٢٣.

(٦) الصلة ج ٢ ص ٤٠١ ، ٤٠٢.

(٧) انظر طوق الحمامة ص ٢٦٤ ، معجم الأدباء ج ١٢ ص ٢٤١ . الصلة لابن بشكوال ج ١ ص ٢٦٠.

هكذا تلقى الإمام ابن حزم الحديث وغيره من العلوم على أولئك العلماء وغيرهم كثير من الذين التقى بهم في صغره بقرطبة وحتى بعد ذهابه عنها وتجوله في الأندلس بعقل لا يكل ونفس لا تمل فلم يفارق الطلب والسماع إلي أن صار إماماً.

تلاميذه :

الإمام ابن حزم بدأ العلم مالكياً ثم مال إلي رأي الإمام الشافعي - رحمه الله - وهذا خلاف ما عليه جمهور أهل الأندلس ، فهم على مذهب الإمام مالك ، فاستهدف بذلك لكثير من الفقهاء وعيب بالشدوذ ، ولكنه لم يستمر على هذا فعدل إلي ما هو أشد وهو المذهب الظاهري ، علاوة على ذلك كان صريحاً لا يعرف المجاملة ، حاد المزاج ، عنيفاً في مناظراته ومجادلاته .

جاء في كتاب معجم الأدباء (١) وكان يحمل علمه هذا ويجادل من خالفه فيه على استرسال في طباعه وبذل بأسراره ، واستناداً على العهد الذي أخذه الله على العلماء من عباده ﴿لَتَبَيَّنَّهٗ لِلنَّاسِ وَلَا تَكُتُمُوهُ﴾ (٢) فلم يك يلفظ صدعه بما عنده بتعريض ، ولا يرقه بتدريج بل يصك به معارضيه صك الجندل ، وينشقه متعلقه انشاق الخردل ، فنفر عنه القلوب ، وتوقع به الندوب حتى استهدف إلي فقهاء وقته فتمائلوا على بغضه وردوا أقواله فأجمعوا على تضليله وشنعوا عليه وحذروا سلاطينهم من فتنته ، ونهوا عوامهم من الدنو إليه والأخذ عنه وطفق الملوك يقصونه عن قريبهم ، ويسيرونه عن بلادهم إلي أن انتهوا به منقطع أثره بتره بلده من بادية لبة (٣).

تلك حصائد طول لسانه الموصوف بأنه شقيق سيف الحجاج باستخفافه بالكبار ووقوعه في أئمة الاجتهاد ، وصراحته بما يراه الحق وتعصبه له وعدم مجاملته للأمرء والحكام ، عوامل عديدة أحاطت بالإمام ابن حزم فقللت من مصاحبته ، فعلماء عصره دعوا الناس إلي التآليب ضده ، حسداً منهم للثراء الذي كان عليه ، ثم حسدوه على تحصيله العلمي .

ومع هذا فقد استمر الإمام ابن حزم سالكاً طريقته بعزيمة صادقة لا تعرف التردد سائراً في طريقته لا يلتفت إلي من يخالفه يبيث علمه فيمن ينتابه من الطلبة الذين لا يخشون فيه الملامة ، ولا يسمعون أصوات المحذرين عنه لثقتهم به ومعرفتهم بحقيقته ، فمنهم من قرأ عليه وأكثر الرواية عنه ومنهم من سمعوا عليه .

(١) ذكر ذلك أبو مروان بن حيان في معجم الأدباء لياقوت ج ١٢ ص ٢٤٨.

(٢) سورة آل عمران الآية ١٨٧.

(٣) انظر معجم الأدباء لياقوت ج ١٢ ص ٢٤٨.

فمنهم :

- ١ - أبو عبد الله محمد بن أبي نصر فتوح بن عبد الله بن حميد الأزدي الحميدي الأندلسي الميورقي الحافظ المشهور ، كان مؤرخاً ، وهو صاحب الإمام ابن حزم ومن أعظم تلاميذه ، ورحل إلى المشرق فنشر كتب الإمام ابن حزم هناك ، وله تصانيف منها: "أسماء رواة الحديث" ، "تسهيل السبيل" ، "جذوة المقتبس في ذكر ولادة الأندلس" ، ولد عام ٤٢٠هـ وتوفي ٤٨٨هـ (١).
- ٢ - أبو رافع الفضل بن علي بن أحمد بن حزم تتلمذ على يد أبيه وقد أكمل كتاب المحلى بالأدلة بعد وفاة أبيه ، وقد توفي عام ٤٧٩هـ (٢).
- ٣ - أبوبكر محمد بن الوليد الفهري الطرطوشي ، أحد علماء المسلمين الأعلام ينسب إلى (طرطوشة) من بلاد الأندلس نشأ بها وطلب العلم في البلاد الأندلسية ، وأخذ عن أبي الوليد الباجي وابن حزم ، ورحل إلى المشرق وحج ولقي شيوخ العراق ، وأقام بالشام زمناً ودرّس بها وله مؤلفات أعظمها "سراج الملوك" وله "كتاب البدع" توفي عام ٥٥٢هـ ودفن بالإسكندرية وكان مولده عام ٤٢٢هـ (٣).
- ٤ - وقد سمع عليه الفقيه علي بن سعيد العبدي وهو أحد شيوخه الذين سمع منهم وذلك عندما حل الإمام ابن حزم جزيرة ميورقة وأتبع العبدي المذهب الظاهري ، ولما رحل إلى المشرق وحج تركه واعتنق المذهب الشافعي (٤).
- ٥ - عبد الباقي بن محمد بن سعيد بن بيدال الأنصاري ، وهو من أهل وادي الحجارة كان عالماً ورعاً شاعراً سكن في آخر عمره المرية وتوفي في مدينة بلنسية سنة ٥٠٢هـ وكان مولده ٤١٦هـ (٥).
- ٦ - أبو عبد الله شريح بن محمد المقرئ ولد سنة ٤٥١هـ وهو آخر من روى عنه مروياته (٦).

(١) الأعلام للزركلي (٣٢٧/٦) ، وفيات الأعيان لابن خلكان (٢٨٤/٢٨٢/٤).

(٢) دائرة المعارف الإسلامية (١٤٣/١).

(٣) الأعلام للزركلي (١٣٣/٦) وفيات الأعيان لابن خلكان (٢٦٥/٢٦٢/٤) بغية الملتبس في تاريخ رجال الأندلس

(١٢٥) لابن عميرة الضبي . الصلة لابن بشكوال ج٢ ص ٥٤٥.

(٤) انظر الصلة ج٢ ص ٤٠١ ، ٤٠٢ .

(٥) الصلة ج٢ ص ٣٦٦ ، ٣٣٧ بغية الملتبس ص ٣٨٥ .

(٦) لسان الميزان ج٤ ص ١٩٨ ، شذرات الذهب ج٤ ص ١٢٢ .

لكن يبدو أن الذي أخذ عن الإمام ابن حزم ليس شريحاً إنما والده محمد لأن شريح ولد عام ٤٥١هـ ووفاة الإمام ابن حزم كانت ٤٥٦هـ فسنه عند وفاة ابن حزم خمس سنوات فلا يمكن أن يأخذ عنه بهذه السنة ، ومحمد بن شريح الذي ترجح أنه الذي روى عن الإمام ابن حزم هو من أهل أشبيلية وكنيته أبو عبد الله رحل إلي المشرق ، وسمع عنه الكثير وله كتب منها الكافي في القراءات والتذكرة ، وكان ثقة ولد سنة ٣٩٢هـ وتوفي سنة ٤٧٦هـ (١) .

هؤلاء بعض ممن تتلمذ على الإمام ابن حزم ، ولا شك أنه يصعب حصرهم ومعرفتهم جميعاً خلال المدة الطويلة التي قضاها في سبيل العلم ، والحرص الشديد على نشره بين الناس .

(١) انظر الصلة ج ٢ ص ٥٢٣ ، ٥٢٤ .

المطلب الثالث

تأثره بالعلماء السابقين

الإمام الشافعي: (١)

بدأ الإمام ابن حزم حياته مالكيًا متأثرًا بالمذهب المالكي السائد في الأندلس في عصره فقد أخذ عن "ابن الجصور" (٢) الفقيه المالكي ولكن سرعانما تحول إلى المذهب الشافعي الذي لم يكن له وجود يذكر في الأندلس ولكن تأثره بالإمام الشافعي واضع علم الأصول وقد تعصب الإمام ابن حزم للشافعية تعصباً جعله خصماً للمالكية (٣).

وكانت الشافعية هي المرحلة الثانية للإمام ابن حزم حتى انتقل إلى الظاهرية واستقر عليها ولكن ظل تأثير الإمام الشافعي واضح البصمات بين القسمات على الإمام ابن حزم وفقهه وأصوله الفقهية دون سائر المذاهب الأربعة.

فالمالكية التي تمذهب عليها لم يكن لها تأثير واضح على الإمام ابن حزم بل كانت مرحلة عارضة في حياته العلمية ، وأما الأحناف فقد كان يراهم أنهم أهل الرأي وهم أبعد من المالكية عنده .

وأما الحنابلة وإن كان الإمام ابن حزم يوافق الإمام أحمد في بعض أقواله التي انفرد بها عن الجمهور ، ولكن نجد تأثير الحنابلة عليه قليل جداً وهذا واضح من كتبه الفقهية والأصولية حيث إنه لم يكن يورد لهم ذكراً ولم يكن يذكر أقوالهم مع كثرة ذكره للأقوال ، ولعل هذا لقلة إطلاعه على مسائلهم ، أو لأنه كان يعد الإمام أحمد من أهل الحديث وليس من الفقهاء .

فالإمام الشافعي لا يأخذ إلا بالنص أو الحمل على النص بالقياس فقط ولا يتعدى ذلك ومعلوم عنه شدة تمسكه بالسنة حتى لقب بناصر "السنة" لذلك نجد أن الإمام ابن حزم لا يذكره إلا مشيداً به ويرفع مكانته ويقدمه على غيره.

(١) هو محمد بن إدريس العباس بن عثمان بن نافع الهاشمي القرشي الملقب أبو عبد الله أحد الأئمة الأربعة كان مولده بمدينة (غزة) بفلسطين ١٥٠هـ وقيل أنه ولد في اليوم الذي توفي فيه أبو حنيفة . وتوفي بمصر عام ٢٠٤هـ ، درس على الإمام مالك وسمع منه الموطأ وتفقه على يديه وعلى فقهاء المدينة ، ثم رحل إلى اليمن فولّي بعض الأعمال هناك ثم رحل إلى بغداد ثم مصر ومن مصنفاته "الرسالة في الأصول" ، "وكتاب الأم" وكتاب المبسوط وكتاب جماع العلة . انظر وفيات الأعيان (٤/١٦٣/١٦٩) تاريخ بغداد للخطيب البغدادي ٥٦/٢ - ٧٣ أصول الفقه تاريخه ورجاله (٦٣ - ٧٠) دسفيان محمد إسماعيل .

(٢) تقدمت ترجمته في شيوخ ابن حزم ص ٥٦ رقم ١.

(٣) سير أعلام النبلاء ١٨ - ١٨٨.

تأثره بداؤد الظاهري:

قدمنا أن الإمام ابن حزم قد بدا العلم مالكيًا ثم شافعيًا ثم ظاهريًا قال: "ابن حيان" "ثم عدل إلي قول أصحاب الرأي فنقحه وجادل عنه وثبت عليه إلي أن مات وكان يحمل علمه هذا ويجادل عنه من خالفه على استرسال في طباعه ومذلل بأسراره" (١)(٢).

فالظاهرية التي ملكت لب الإمام ابن حزم هي المدرسة الفقهية التي برزت على يد "داؤد بن خلف الأصفهاني" (٣).

ظهرت في المشرق الإسلامي فكانت مذهباً منتظماً له أصوله وقواعده وقد امتدت إلي فارس وخراسان ، في الأندلس أخذ هذا المذهب يتسرب عبر العلماء الأندلسيين الذين سافروا إلي المشرق منهم "بقي بن مخلد" الذي كان الإمام ابن حزم معجباً ويثني على مؤلفاته .
معالم الظاهرية :

- ١ - المنع من البحث العقلي في أي حكم شرعي فلم تسمح بأن يمتد الحكم بالقياس إلي حالة مماثلة .
- ٢ - المنع بانتقال الحكم من الخاص إلي العام .
- ٣ - نفي ضروب الاجتهاد بالرأي والاستنباط .
- ٤ - إبطال التقليد مطلقاً ، يقول الإمام ابن حزم: التقليد كله حرام في جميع الشرائع أولها عن آخرها (٤).
- ٥ - النهي عن تقليد المذاهب الأربعة وغيرها وعندهم أن مذهب الإمام مالك يقوم على الرأي مثله مثل أبي حنيفة وأن الشافعي إنما ينظم قواعد الرأي ولم يبطله.
- ٦ - الظاهرية لم تقطن إلي مراتب الأوامر والنواهي ، فالأوامر والنواهي التي فسرتها المذاهب الأخرى في بعض الأحيان بأنها مجرد رخصة أو مستحب أو

(١) أي طابت نفسه بافشاء أسرار العلم .

(٢) سير أعلام النبلاء ٢٠٠/١٨ .

(٣) داؤد بن علي بن خلف أبو سليمان الفقيه الظاهري أصفهاني الأصل وهو إمام الظاهرية كان ورعاً ناسكاً زاهداً ولد عام ٢٠١هـ وتوفي ٢٧٠هـ . انظر تاريخ بغداد ٣٦٩/٨ ط دار الفكر البداية والنهاية ٤٧/١١ - ٤٨ ط دار المعارف (الأنساب ٩٩/٤ السمعاني).

(٤) الإحكام (٦ - ١٥٠).

نهي يحمل على التنزيه والكراهة نجدها عند الظاهرية إما واجبة أو محرمة
تحريماً مطلقاً (١).

موقف العلماء من الظاهرية:

لقد قوبلت الظاهرية من العلماء بالاستنكار والاعتراض فقد تصدى لها بعض
العلماء بالمناضرات والردود مثل "أبو العباس ابن سريح" (٢) فقد ناظرهم وألف كتاباً
في الرد على "داؤد الظاهري" وسبب الاستنكار لأن الظاهرية أنكرت أموراً في حكم
المجمع عليها.

والعلماء لم يرووا عن داؤد إلا القليل مع عبادته ونسكه وكونه ثقة وذلك
للآتي:

١ / إنكاره القياس جملة، وبذلك خالف جمهور الفقهاء حتى أئمة السنة.
٢ / تصريحه بأن القرآن محدث مع تصريحه بأنه لا حرج في أن يمس الجنب والحائض
المصحف الشريف ، وأن يتلو القرآن مما خالف به جمهور الفقهاء أيضاً ، ونادى بذلك
في وقت قد قرر علماءه أن المبتدعة هم الذين يقولون أن القرآن مخلوق ، فهم بهذا
عدوه من ضمن المبتدعة (٣).

وأخذ العلماء على داؤد أنه منع التقليد منعاً مطلقاً ، وأجاز لكل فاهم للعربية
أن يتكلم في الدين بظاهر القرآن والسنة حتى لقد جراً العامة على ما لا قبل لهم به
من أخذ الأحكام مباشرة من الكتاب والسنة (٤).

وبذلك تجرأ على الفقه من لا يحسن الفقه ، واعتد ناس بآرائهم التي انتحلوها
وتمسكوا بظواهر النصوص فكانوا كالخوارج الذين يتعلقون بظواهر الألفاظ من
غير تأمل وتفكير . ومن أجل هذا اشتدت حملة العلماء على مذهب داؤد هذا في حياته
وبعد مماته ، فلم يعتد كثيرون بخلافه وقالوا إنه غير منافٍ للإجماع ، فإن أجمع
العلماء على رأي وفيه خلاف لداؤد وإتباعه فلا ينافي ذلك وجود الإجماع عند
هؤلاء (٥).

(١) انظر دائرة المعارف الإسلامية ، مادة الظاهرية ج ١ ص ٤٠٩ - ٤١٢.

(٢) أحمد بن عمر بن سريح البغدادي أبو العباس فقيه الشافعية في عصره كان يلقب بالباز الأشهب ولي القضاء
بشيراخ له مناظرات مع محمد بن داؤد وله كتاب في الرد على داؤد في إبطال القياس ولد عام ٢٤٩هـ ببغداد وتوفي
بها عام ٣٠٧هـ . وفيات الأعيان (١/ ٦٦ - ٦٧) البداية والنهاية (١١/ ١٢٩).

(٣) انظر تاريخ بغداد للخطيب البغدادي ص ٣٧٤.

(٤) انظر مقدمة النبذ للكوثري ص ٤.

(٥) انظر طبقات السبكي ج ٢ ص ٤٥.

اختلاف العلماء : هل يعتد بخلاف داؤد الظاهري وأصحابه في الفروع ؟

اختلف العلماء في ذلك إلى ثلاثة أقوال:

١ / اعتباره مطلقاً أي أن خلافهم معتبر في مسائل الفروع ، قال ابن الصلاح (١): "إنه الذي استقر عليه مذهبننا".

٢ / عدم اعتبار خلافهم مطلقاً رواه أبو إسحق الإسفرايني (٢) وقال: "قال الجمهور إنهم لا يبلغون رتبة الاجتهاد ولا يجوز تقليدهم وأن أباهريرة (٣): "لا يعتد بخلافهم في الفروع . وهذا هو اختيار إمام الحرمين (٤) فقد قال: "والمحققون من علماء الشريعة لا يقيمون لأهل الظاهر وزناً وقد كان كل مسلك يختص به أهل الظاهر عن القياس فالحكم بحسنه منصوص ، وقال وبحق قال حبر الأصول القاضي أبوبكر (٥): "إني لا أعدهم من علماء الأمة ولا أبالي بخلافهم ولا وفاقهم ، وقال إن أصحاب الظاهر ليسوا من علماء الشريعة وإنما هم نقلة إن ظهرت الثقة.

٣ / إن قولهم معتبر إلا فيما خالف القياس الجلي وهو رأي الشيخ أبي عمرو ابن الصلاح (٦).

(١) ابن الصلاح : عثمان بن عبد الرحمن صلاح الدين أبي موسى الشهرزوري الكردي المعروف بابن الصلاح أحد فضلاء المقدمين في التفسير والحديث والفقه ، وأسماء الرجال ، ولاء الملك الأشرف تدریس الحديث ، من مصنفاته كتاب "معرفة أنواع علوم الحديث" ولد عام ٥٧٧هـ وتوفي عام ٦٤٣هـ ، انظر الأعلام ٣٦٩/٤ ، وفيات الأعيان ٢٤٣/٣ - ٢٤٥.

(٢) الإسفرايني : هو إبراهيم بن محمد بن إبراهيم بن مهران ، أبو اسحق الإسفرايني ، عالم بالفقه والأصول ، كان يلقب بركن الدين ، وكان من المجتهدين في العبادة والمبالغين في التحرج والورع ، له تصانيف منها "رسالة في أصول الفقه" توفي ٤١٨هـ ، انظر وفيات الأعيان ٢٨/١.

(٣) أبو هريرة : هو الحسن بن الحسين ابن أبي هريرة أبو على الفقيه ، انتهت إليه إمامة الشافعية في العراق ، وكان عظيم القدر ، مهيباً وله كتب منها "شرح المزني" ، "المسائل في الفقه" توفي ببغداد عام ٣٤٥هـ ، انظر وفيات الأعيان ٧٥/٢.

(٤) إمام الحرمين : هو عبد الملك بن يوسف بن محمد الجويني أبو المعالي ركن الدين الملقب بإمام الحرمين ، أعلم المتأخرين من أصحاب الشافعي ، ولد في "جوين" بنيسابور ورحل إلى بغداد ثم جاور مكة ، بنى له الوزير نظام الملك المدرسة النظامية ، قيل عنه "الفقه فقه الشافعي ، والأدب أدب الأصمعي ، والوعظ وعظ الحسن البصري" وله تصانيف منها "البرهان" ، "الورقات" ، "غياث الأمم في التباس الظلم" انظر وفيات الأعيان ١٦٧/٣ - ١٧٠ ، الأعلام ١٦٠/٤.

(٥) القاضي أبوبكر : هو محمد بن الطيب بن جعفر أبوبكر المعروف بالباقلاني البصري المالكي الفقيه قاضي من كبار علماء الكلام ، انتهت إليه رئاسة الأشاعرة ، ولد بالبصرة عام ٣٣٨هـ وتوفي بها عام ٤٠٣هـ وكان جيد الاستنباط ، سريع الجواب ، فقيه متكلم أصولي ، من تصانيفه "التمهيد" ، "المقنع في أصول الفقه" ، انظر الأعلام ١٧٦/٦ ، وفيات الأعيان ٢٦٩/٤ - ٢٧٠.

(٦) انظر طبقات الشافعية الكبرى ٢٨٤/٣ لتاج الدين السبكي .

المطلب الرابع

تأثير الإمام ابن حزم على من بعده

لقد كان الأسلوب الذي انتهجه الإمام ابن حزم عقبة في طريق انتشار الفقه الظاهري عنه ، فقد ألب الخاصة والعامة بتهجمه على العلماء ، فلم ينتشر المذهب الظاهري عن الإمام ابن حزم في حياته بل ظل حبيس الكتب ، ولكن ظل فقه الإمام ابن حزم يتسرب في العالم الإسلامي على مدى القرون ، لأن ابن حزم أجاد تدوين وتهذيب وترتيب مذهبه في مصنفات كثيرة من المطولات والمختصرات مما ساهم في حفظ فقه الظاهرية إلى يومنا هذا .

وقد ظهر بعد الإمام ابن حزم بعض العلماء الذين تأثروا به ودافعوا عن مذهبه فأول من نشر علمه بالمشرق تلميذه أبو عبد الله محمد بن نصر الحميدي الحافظ . وكذلك أبو الفضل محمد بن طاهر المقدسي (١) والذي أخذ عن الحميدي الفقه الظاهري وانتصر له ودعى له في الشرق الإسلامي .

وكذلك نجد محي الدين بن عربي الصوفي (٢) والذي كان ظاهرياً في العبادات باطنياً في المعتقد ، قام بنشر كتب ابن حزم فاختصر كتاب المحلى وسماه المعلى ، وله في أصول الظاهرية مؤلفات . وكذلك الشعراني الصوفي (٣) والذي شرح كتاب ابن عربي في التصوف ، قد حفظ لنا كثيراً من أحكام الظاهرية .

(١) أبو الفضل : هو محمد بن طاهر بن علي بن أحمد المقدسي الشيباني أبو الفضل المعروف بالقيسراني ، رحالة مؤرخ من حفاظ الحديث ، مولده بيت المقدس عام ٤٤٨هـ ووفاته ببغداد عام ٥٠٧هـ وكان ظاهري المذهب وله تصانيف كثيرة منها "تاريخ الشام ومعرفة الأئمة منهم والأعلام" ، "معجم البلدان" ، "أطراف الغرائب والأفراد" ، انظر الأعلام ١٧١/٦ ، وفيات الأعيان ٢٧٨/٤ - ٢٨٨.

(٢) محي الدين : هو أبو بكر محمد بن علي محي الدين الحاتمي الطائي الأندلسي متصوف مشهور من أنصار مذهب وحدة الوجود ، أطلق عليه أتباعه اسم الشيخ الأكبر ويعرف في الأندلس بابن سراقه ، وأما في الشرق فكان يعرف بابن عربي من غير أداة التعريف تميزاً له عن القاضي أبي بكر بن العربي ، ولد عام ٥٦٠هـ بمريسة بالأندلس ورحل إلى المشرق ولم يعد منه إلى وطنه ، وزار الموصل وآسيا الوسطى واستقر بدمشق وتوفي بها عام ٦٣٨هـ أما في جانب الأصول فقد كان من أنصار مواطنه ابن حزم وله تصانيف منها "الفتوحات المكية" ، "أصول الظاهرية" ، "مختصر المحلى" ، انظر سير أعلام النبلاء ٤٨/٢٣ شذرات الذهب ١٩٠/٣ ، دائرة المعارف الإسلامية ٢٣٦- ٢٣١/١.

(٣) الشعراني : هو عبد الوهاب بن أحمد بن علي الحنفي نسبه إلى محمد بن الحنفية الشعراني ، أبو محمد من علماء المتصوفة ولد بمصر عام ٨٩٨هـ وينسب إلى أبي شعرة من قرى المنوفية بالقاهرة توفي عام ٩٧٣هـ ، من مصنفاته "تنبيه المغترين في آداب الدين" ، "الكبريت الأحمر في علوم الشيخ الأكبر" "الميزات الكبرى" ونجد في

ونجد أن ابن رومية النباتي الحافظ(١) ينتصر لمواطنه ابن حزم ويتعصب له .
ولكن كان عصر ازدهار المذهب الظاهري في أواخر القرن السادس وأول
القرن السابع الهجري ، حيث نجد أن الموحدين قد عمموا العمل بالمذهب الظاهري في
شمال إفريقيا وبلاد الأندلس على يد أبي يوسف يعقوب(٢) والذي دعى إلى الأخذ
بالكتاب والسنة وهو القائل كل العلماء عيال على الإمام ابن حزم(٣).

كتاب الميزات يضع في عين الشريعة المطهرة داؤد بين مذهب الإمام الليثي ومذهب الإمام أبي حنيفة ، انظر الأعلام
١٨٠/٤ - ١٨١ دائرة المعارف الإسلامية ٣/٣١١.

(١) ابن رومية : هو أبو القاسم بن رومية أحمد بن محمد بن مفرج بن عبد الله الأموي مولا هم الأندلسي الزهري
النباتي ، الحافظ كان حافظاً صالحاً ، مصنفاً من الأثبات ، ظاهري المذهب مع ورع ، وقد انتصر لابن حزم وله
رد على شيخه ابن زرقون ، كان يحترف الصيدلة لمعرفة الجيدة بالنبات ، انظر شذرات الذهب ٣/١٨٤ لابن
الفلاح الحنبلي .

(٢) أبو يوسف : هو يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن بن علي الكومي الموحد أبي يوسف المنصور بفضل الله ، من
ملوك الدولة المؤمنية في المغرب الأقصى ومن أعظمهم أثراً ولد بمراكش عام ٥٥٤هـ وتوفي عام ٥٩٥هـ ، استقامت
الأحوال في أيامه وعظمت الفتوحات ، وكان شديداً في دينه ، أمر برفض فروع الفقه ونهي الفقهاء عن الإفتاء إلا
بالكتاب والسنة ، وأبطل التقليد ، انظر الأعلام ٨/٢٠٣.

(٣) انظر نفح الطيب ٤/٢٢.

المبحث الثالث

مصنفاته وثناء العلماء عليه وثناءه على نفسه ووفاته

وفيه ثلاثة مطالب

المطلب الأول : مصنفاته في العلوم المختلفة

المطلب الثاني : ثناء العلماء عليه وعلى نفسه وثناء

المعاصرين له

المطلب الثالث : وفاته

المطلب الأول

مصنفاته (١)

في العلوم المختلفة كانت الكتابة عند الإمام ابن حزم هي أهم وسيلة للتعبير عن آرائه وعلمه فقد كان محاصراً ومحارباً من الفقهاء لأنه بسط لسانه فيهم بسطاً منكراً فنفر طلاب العلم عنه ، لهذا وجد الإمام ابن حزم السعة في التأليف والتحقيق . فألف ما لم يؤلفه عالم في زمانه ، وإن لم يتجاوز عتبة داره وبلدته في زمانه .

الإمام ابن حزم - رحمه الله - له مصنفات جلييلة وعظيمة القدر كانت نورا أضاء للناس السير في الطريق الجاد الموصل إلي رضوان الله عز وجل ففي كل فن من فنون العلوم كان إمامنا في المقدمة ، ومن مصنفاته:

- ١ - كتاب الإيصال (٢) إلي فهم كتاب الخصال خمسة عشر ألف ورقة . ٢ -
- كتاب الخصال الحافظ لجمل شرائع الإسلام مجلدان . ٣ - المحلى في الفقه مجلد .
- ٤ - كتاب المحلى في شرح المحلى بالحجج والآثار ثمانى مجلدات . ٥ - كتاب حجة الوداع مائة وعشرون ورقة . ٦ - كتاب قسمة الخمس في الرد على إسماعيل القاضي مجلد . ٧ - كتاب الآثار التي ظاهرها التعارض ونفي التناقض عنها يكون عشرة ألف ورقة ، لكن لم يتمه . ٨ - كتاب الجامع في صحيح الحديث لا أسانيد . ٩ -
- كتاب التلخيص والتخليص في المسائل النظرية . ١٠ - كتاب ما انفرد به مالك وأبو حنيفة والشافعي . ١١ - مختصر الموضح لابن الحسن المغلس الظاهري مجلد . ١٢ -
- كتاب اختلاف الفقهاء مالك وأبو حنيفة والشافعي وأحمد وداؤد . ١٣ - كتاب التصفح في الفقه مجلد . ١٤ - كتاب التبيين في هل علم المصطفى أعيان المنافقين ثلاثة كراريس . ١٥ - كتاب الإملاء في شرح الموطأ ألف ورقة . ١٦ - كتاب الإملاء في قواعد الفقه ألف ورقة مجلدين . ١٧ - كتاب در القواعد في فقه الظاهرية ألف ورقة أيضاً . ١٨ - كتاب الإجماع مجلدين . ١٩ - كتاب الفرائض مجلدين . ٢٠ -
- كتاب الرسالة البلقاء في الرد على عبد الحق بن محمد الصقلي مجلد . ٢١ - كتاب

(١) انظر سير أعلام النبلاء ١٨ .

(٢) الجامعة لجمل شرائع الإسلام في الواجب والحلال والحرام والسنة والإجماع أورد فيه أقوال الصحابة والتابعين ومن بعدهم من أئمة المسلمين رضي الله عنهم أجمعين في مسائل الفقه والحجة لكل طائفة وعليها ، وهو كتاب كبير في مسائل الفقه كما قال ابن خلكان ، ويقول الوزير أبو محمد بن العربي وكان عند الإمام أبي محمد بن حزم كتاب الإيصال في أربع وعشرين مجلداً بخط يده وكان في غاية الإدماج ، انظر وفيات الأعيان ج٣ ص ٢٢٥ ، تذكرة الحفاظ ج٣ ص ١١٤٧ ، معجم الأدباء ج١٢ ص ٢٤٢ - ٢٤٣ ، وذكره ابن عقيل ضمن المفقودات ، انظر مجلة الفيصل ص ٦٢ عدد ٢٦ .

الإحكام في أصول الأحكام مجلدان. ٢٢ - كتاب الفصل في الملل والنحل مجلدان كبيران. ٢٣ - كتاب الرد على من اعترض على الفصل مجلد. ٢٤ - اليقين في نقض تمويه المعتذرين عن إبليس وسائر المشركين مجلد كبير. ٢٥ - الرد على ابن زكريا الرازي مائة ورقة. ٢٦ - الترشيح في الرد على كتاب "الفريد" لابن الراوندي في اعتراضه على النبوات مجلد. ٢٧ - الرد على من كفر المتأولين من المسلمين مجلد. ٢٨ - مختصر في علل الحديث مجلد. ٢٩ - التقريب لحد المنطق بالألفاظ العامة مجلد. ٣٠ - الاستجلاب مجلد. ٣١ - نسب البربر مجلد. ٣٢ - نقط العروس مجليد وغير ذلك.

ومما له في جزء أو كراس مراقبة أحوال الإمام ، من ترك الصلاة عمداً ، قصر الصلاة ، رسالة التأكيد ما وقع بين الظاهرية وأصحاب القياس ، فضائل الأندلس العتاب على ابن مروان الخولاني ، رسالة في معنى الفقه والزهد ، مراتب العلماء وتوابعهم ، التلخيص في أعمال العباد ، الإظهار لمن شنع به على الظاهرية ، زجر الفادي جزآن ، النبذ الكافية ، النكت الموجزة في نفي الرأي والقياس والتعليل والتقليد مجلد صغير ، الرسالة اللازمة لأولي الأمر مختصر الملل والنحل مجلد ، الدرّة في ما يلزم المسلم جزآن ، مسألة في الروح ، الرد على إسماعيل اليهودي الذي ألف في تناقض آيات ، النصائح المنجية ، الرسالة الصمادية في الوعد والوعيد ، مسألة الإيمان ، مراتب العلوم ، بيان غلط عثمان بن سعيد الأعور في المسند والمرسل ، سؤالات عثمان الدارمي لابن معين ، عدد ما لكل صاحب في مسند بقي ، تسمية شيوخ مالك ، السير والأخلاق جزآن ، بيان الفصاحة والبلاغة ، رسالة في ذلك إلى ابن حفصون ، مسألة هل السواد لون أو لا ، الحد والرسم ، تسمية الشعراء الوافدين على ابن أبي عامر ، شيء في العروض ، مؤلف في الظاء والضاد ، التعقب على الإفليلي في شرحه لديوان المتنبي ، غزوات المنصور بن أبي عامر ، تأليف في الرد على أناجيل النصاري.

وللإمام ابن حزم رسالة في الطب النبوي وذكر فيها أسماء كتب له في الطب منها مقالة العادة ، مقالة في شفاء الضد بال ضد ، شروح فصول بقراط ، بلغة الحكيم حد الطب اختصار كلام جالينوس في الأمراض الحادة ، الأدوية المفردة ، مقالة في المحاكمة بين التمر والزبيب ، مقالة في النحل وأشياء سوى ذلك (١).

(١) انظر السير ١٩٣/١٨ - ١٩٧.

ومن خلال تتبعي وجدت أن العدد أكثر من ذلك منها(١): ١ / الاتصال
 ٢/ أجوبة كالأجوبة على المسائل المستغربة من البخاري لابن عبد البر ٣/ الأخلاق
 والسير في مداواة النفوس أو رسالة في مداواة النفوس والأخلاق والزهد في الرذائل
 ٤/ أخلاق النفس ٥/ الاستقصاء ٦/ أسماء الخلفاء المهديين والأئمة أمراء المؤمنين وأسماء
 الولاة من قریش ومن بني هاشم أمور المسلمين وذكر ممدتهم إلي زماننا ٧/ أسماء
 الصحابة والرواة وما لكل من العدد ٨/ أسماء الله الحسنى ٩/ أسواق العرب
 ١٠/ أصحاب الفتيا من الصحابة ومن بعدهم على مراتبهم في كثرة الفتيا ١١/ الأصول
 والفروع ١٢/ إظهار تبديل اليهود والنصارى للتوراة والإنجيل وبيان تناقض ما بأيديهم
 من ذلك مما لا يحتمل التأويل ، وهذا معنى لم يسبق إليه ١٣/ الاعتقاد ١٤/ الإعراب
 عن الحيرة والالتباس الواقعين في مذهب أهل الرأي والقياس ١٥/ الإمامة والسياسة في
 قسم سير الخلفاء ومراتبها والندب والواجب منها(٢) ١٦/ أمهات الخلفاء ١٧/ الإنصاف
 ١٨/ أن القرآن ليس من نوع بلاغة الناس ١٩/ أوقات الأمراء ٢٠/ أوهام الصحيحين(٣)
 ٢١/ الإيمان في الرد على عطف بن دوناس القيرواني ٢٢/ البيان عن حقائق الإيمان
 ٢٣/ التأكيد(٤) ٢٤/ التحقيق في نقد زكريا الرازي في كتابه العلم الإلهي(٥)
 ٢٥/ تفسير قوله تعالى (حَتَّى إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِّبُوا)(٦)(٧)
 ٢٦/ تنوير المقباس ٢٧/ تواريخ أعمامه وأبيه وأخوته وبنيه وبناته مواليدهم وتاريخ من
 مات منهم في حياته(٨) ٢٨/ التوفيق إلى شارع النجاة باختصار الطريق ٢٩/ الجامع
 ٣٠/ جمل فتوح الإسلام بعد رسول الله ﷺ ٣١/ جمهرة أنساب العرب ٣٢/ جوامع السيرة
 ٣٣/ الحدود ٣٤/ حديثان أحدهما في صحيح البخاري والآخر في صحيح مسلم زعم
 أنهما موضوعان ٣٥/ حكم من قال إن أرواح أهل الشقاء معذبة إلي يوم الدين ٣٦/

(١) انظر معجم الأدباء ج١٢ ص٢٥٢ - تذكرة الحفاظ للذهبي ج٣ ص١١٤٧ ، ١١٤٩ - وفيات الأعيان ج٣ ص٣٢٦
 - جذوة المقتبس ٣٠٩ - نفح الطيب ج٦ ص٢٠٥ - لسان الميزان لابن حجر ج٦ ص٢١٧ - تهذيب التهذيب لابن حجر
 ج٧ ص١٨٥ - معجم البلدان ج١ ص٣٦٩ - المحلى لابن حزم ج١٠ ص٣٤٩ ، ج١/٦٥ - ٩٣.

(٢) سماه المقرئ الإمامة والخلافة ، انظر نفح الطيب ج٦ ص٢٠٥.

(٣) وهو من المؤلفات المفقودة ، انظر مجلة الفيصل عدد ٢٦ ص٦٢. للكاتب عبد الرحمن بن عقيل .

(٤) المرجع السابق ص٦٠.

(٥) نفس المرجع والصفحة .

(٦) سورة يوسف الآية ١١٠.

(٧) وهو من المؤلفات المفقودة ، انظر مجلة الفيصل عدد ٢٦ ص٦٠ للكاتب عبد الرحمن بن عقيل تحت عنوان
 "مؤلفات ابن حزم المفقودة".

(٨) نفس المرجع السابق والصفحة .

ديوان شعره ٣٧/ الرد على ابن النغريلاء ٣٨/ الرد على أناجيل النصارى (١) ٣٩/ الرد على الهاتف من بعيد ٤٠/ رسالتان أجاب فيهما عن رسالتين سئل فيهما سؤال التعنيف ٤١/ زجر الغاوي (٢) ٤٢/ السعادة في الطب (٣) ٤٣/ السياسة ٤٤/ السيرة ٤٥/ طوق الحمامة في الإلفة والألاف ٤٦/ الغناء الملهي أمباح هو أم محظور (٤) ٤٧/ رسالة في آية (فَإِنْ كُنْتَ فِي شَكٍّ مِّمَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ) (٥) (٦) ٤٨ / مجموع فتاوى عبد الله بن عباس ٤٩/ كتاب الفضائح (٧) ٥٠/ فضل العلم وأهله (٨) ٥١/ فهرست شيوخ ابن حزم (٩) ٥٢/ القراءات المشهورة في الأمصار الآتية مجيء التواتر ٥٣/ قصيدة في الهجاء رداً على قصيدة نقفوز ، وقصيدة ميمية أخرى مطلعها :

لك الحمد يارب والشكر ثم ❖❖❖ لك الحمد ما باح بالشكر فم

٥٤/ ما خالف فيه أبو حنيفة ومالك والشافعي جمهور العلماء وما انفرد به كل واحد ، وقطعة فيما خالف فيه كل واحد الإجماع المتيقن المقطوع به ٥٥/ المحلى بالاختصار ٥٦/ مختصر كتاب الساجي في الرجال (١٠) ٥٧/ مراتب الإجماع ٥٨/ مراتب الديانة (١١) ٥٩/ المرطار في اللهو والدعابة (١٢) ٦٠/ مسائل أصول الفقه ٦١/ مسألة الكلب ٦٢/ المعارضة "رسالة" (١٣) ٦٣/ معرفة النفس بغيرها وجهلها ذاتها ٦٤/ معنى الفقه والزهد (١٤) ٦٥/ مفاضلة بين الصحابة ٦٦/ ملخص إبطال القياس والرأي والاستحسان والتقليد والتعليل ٦٧/ منتقى الإجماع وبيانه من جملة ما لا يعرف فيه اختلاف ٦٨/ مهم السنن (١٥) ٦٩/ الناسخ والمنسوخ ٧٠/ تارك الصلاة عمداً حتى يخرج

(١) مجلة الفيصل عدد ٢٦ ص ٦٠ للكاتب عبد الرحمن بن عقيل تحت عنوان "مؤلفات ابن حزم المفقودة".

(٢) نفس المرجع السابق والصفحة .

(٣) نفس المرجع السابق ص ٦١.

(٤) نفس المرجع السابق ص ٥٩

(٥) سورة يونس الآية ٩٤.

(٦) نفس المرجع السابق والصفحة .

(٧) نفس المرجع السابق والصفحة .

(٨) نفس المرجع السابق ص ٦٢ .

(٩) وهو من المؤلفات المفقودة ، انظر مجلة الفيصل عدد ٢٦ ص ٦٢ للكاتب عبد الرحمن بن عقيل تحت عنوان "مؤلفات ابن حزم المفقودة" .

(١٠) نفس المرجع السابق والصفحة .

(١١) نفس المرجع السابق ص ٦١ .

(١٢) نفس المرجع السابق ص ٦٢.

(١٣) نفس المرجع السابق ص ٦٠.

(١٤) نفس المرجع السابق ص ٦١.

(١٥) نفس المرجع السابق والصفحة .

وقتها لا قضاء عليه فيما قد خرج من وقته ٧١/نكت الإسلام ٧٢/هل للموت آلام أم لا.

هذه قطرة من فيض هذا الإمام الجهبذ ، ويدرك المطلع في سيرته الكثير من العوامل الداعية لفقدائها وإتلافها ، ومن ذلك عدم تأييد معاصريه ومن بعدهم لمذهبه ، والتحذيرات الكثيرة من كتبه خاصة ، ثم ما طرأ على الأندلس عامة من وقت ابن حزم إلي أن استولى النصارى عليها وأخرجوا المسلمين - من كثرة الحروب والخلافات بين الحكام ، والتي من نتائجها الهدم للمكتبات وإحراقها وامتداد أيدي السوء إليها إلي غير ذلك من العوامل .

مقدار تواليفه :

يقول ابنه أبو رافع : أن مبلغ تواليفه في الفقه والحديث والأصول والنحل والملل وغير ذلك من التاريخ والنسب وكتب الأدب والرد على المعارض نحو أربعمئة مجلد تشتمل على قريب من ثمانين ألف ورقة ، وهذا شيء مما علمناه لأحد ممن كان في دولة الإسلام قبله إلا "أبي جعفر بن جرير الطبري" فإنه أكثر أهل الإسلام تصنيفاً ... فقد حسبت أيام حياته ، وحسبت تصانيفه فكان لكل يوم أربع عشرة ورقة ، ثم قال ولأبي محمد بن حزم بعد هذا نصيب وافر من النحو واللغة وقسم صالح من قرض الشعر وصناعة الخطابة(١).

وإن ما ذكر الفضل عن مبلغ تواليف والده لم يكتب الله تعالى للكثير منها البقاء ، وكانت هناك عوامل عديدة دعت إلي ذهابها وعدم انتشارها ، من ذلك : المذهب الذي انتحله فإنه مخالف ما عليه أهل الأندلس ، وحدة لسانه ، وتطاوله على العلماء هناك للدفاع عن هذا المذهب ، وقد كان لسان ابن حزم وسيف الحجاج بن يوسف الثقفي شقيقين(٢) فضاق به علماء عصره فأجمعوا على تضليله ، وشنعوا عليه ، وحذروا سلاطينهم من فتنته ، ونهوا العوام من الدنو إليه والأخذ عنه ، ولكنه على الرغم مما قوبل به من الفقهاء والرؤساء لا يرتدع ولا يرجع إلي ما أرادوا يبيث علمه فيمن ينتابه من أصاغر الطلبة الذين لا يخشون فيه الملامة ، ولا يدع المثابرة على العلم والمواظبة على التأليف حتى كمل من مصنفاته في فنون العلم المختلفة وقر بغير لم تتجاوز باديته(٣).

(١) انظر معجم الأدباء ج١٢ ص٢٣٨ - ٢٣٩.

(٢) انظر وفيات الأعيان لابن خلكان ج٣ ص٣٢٨.

(٣) انظر معجم الأدباء ج١٢ ص٢٤٨ - ٢٤٩.

المطلب الثاني

ثناء العلماء عليه وعلى نفسه

لقد اتصف الإمام ابن حزم بصفات وخلال كثيرة مكنته من أن يتصدر ، وأن ينال الإمامة في الدين وأن يتقدم في ضروب الفنون المختلفة .

فنجده أن صفاته كانت على ثلاثة خصال :

الأولى من واقع بيئته والثانية بعضها جُبل عليها ، والثالثة ألزم نفسه بها.

والخصال هي:

١ / حدة الذكاء وقوة الحافظة قال "الذهبي" "ورزق ذكاءً مفراطاً ، وذهناً سيالاً وكتباً نفيسة" (١) ، وقال "الحميدي" (٢) "ما رأينا مثله فيما اجتمع له من الذكاء وسرعة الحفظ" (٣) فقد بلغ في الذكاء المنتهى في زمانه حتى خضع له أقرانه ، كيف لا وقد قال عنه مؤرخ الإسلام "الذهبي" وأخضع لفرط ذكائه وسعة علمه (٤). وهذه الموهبة جعلته من أوعية العلم وحفاظه .

يضاف إلى ذلك سرعة البديهة ، وعمق الإدراك ، وبعد النظر ، مما سهل عليه الخوض في علم المنطق وسبر أغواره وهذه المواهب جعلته مجادلاً ، محاوراً ، متفنناً بالحجج الشرعية والعقلية ، ومن يطلع على كتب الإمام ابن حزم يجد هذه الخصال التي أثنى عليه بها الكبار .

وقد ألزم نفسه بأخلاق وصفات حميدة ، هي الإخلاص وكرم النفس ، والتدين ، والحشمة يقول "ابن الفلاح" (٥) معدداً ما امتاز به من الأخلاق مع الصدق والديانة والحشمة ، والسؤدد ، والرياسة ، والثروة وكثرة الكتب (٦) وقال "الحافظ الحميدي" "ما رأينا مثله فيما اجتمع له من الذكاء وسرعة الحفظ ، وكرم النفس ، والتدين" (٧).

كذلك أثنى عليه العلماء بالصبر ، والمثابرة ، وقوة العزيمة في تحصيل العلم

ونشره .

(١) انظر سير أعلام النبلاء ١٨/١٨٦ .

(٢) تقدمت ترجمته في تلاميذ ابن حزم ص ٦١ رقم ١ .

(٣) جذوة المقتبس (٣٠٨) .

(٤) سير أعلام النبلاء ١٨ - ١٨٦ .

(٥) ابن الفلاح : عبد الحي بن أحمد بن العماد العبكري الحنبلي أبو الفلاح مؤرخ ، فقيه ، عالم بالأدب ، ولد بدمشق عام ١٠٣٢ هـ وتوفي حاجاً ١٠٨٩ هـ له كتاب شذرات الذهب في أخبار من ذهب . انظر الأعلام ٣/٢٩٠ .

(٦) شذرات الذهب ٢/٢٩٩ .

(٧) جذوة المقتبس ٣٠٨ .

ثاءه على نفسه:

ويثني على نفسه قائلاً : "لأننا ولله الحمد والمنة أهل التخليص ، والبحث ، وقطع العمر في طلب تصحيح الحجة" (١) ونلاحظ رغم حدته في ألفاظه نجد فيه رقة ولين وهذا مشاهد في كتابه "طوق الحمامة" (٢) وبعض رسائله الأدبية ، ولعل هذا من تأثير البيئة عليه فقد نشأ في كنف الجواري ، وفي الرفاهية ، والتتعم ، وكان كذلك زاهداً في الرياسة ، ومصانعة الحكام ، وطلب عطاياهم وذلك لأنه كان مستغن بما ورثه من ثروة طائلة عن أسرته .

وثانياً : كثرة الفتن ودسائس الحكام فزهد في السياسة وأهلها وانقطع للعلم والبحث .

قال الإمام "أبو القاسم بن صاعد" (٣): كان الإمام ابن حزم أجمع أهل الأندلس قاطبة لعلوم الإسلام ، وأوسعهم معرفة مع توسعه في علم اللسان ، ووفور حظه من البلاغة والشعر ، والمعرفة بالسير والأخبار .

قال "أبو عبد الله الحميدي" (٤): كان الإمام ابن حزم حافظاً للحديث وفقهه ، مستتباً للأحكام من الكتاب والسنة ، متفنناً في علوم جملة ، عاملاً بعلمه .

قال "عز الدين بن عبد السلام" (٥): وكان أحد المجتهدين : "ما رأيت في كتب الإسلام في العلم مثل "المحلى" لابن حزم وكتاب "المغني للشيخ موفق الدين" (٦).

قال شيخ الإسلام "ابن تيمية" (٧) وإن كان أبو محمد بن حزم في مسائل الإيمان والقدر أقوم من غيره ، وأعلم بالحديث ، وأكثر تعظيماً له ولأهله من غيره...، وإن

(١) الإحكام في أصول الأحكام ١ - ٢٠ .

(٢) كتبه ابن حزم بأسلوب دقيق الملاحظة ، مرهف الحس أوضح فيه العشق وألوانه المختلفة وبين أفكاره النفسية وتجاربه الخاصة وهو مطبوع .

(٣) تقدمت ترجمته ص ٢٥ .

(٤) تقدمت ترجمته في تلاميذ ابن حزم ص ٦١ .

(٥) عبد العزيز بن عبد السلام بن أبي القاسم الحسن السلمي الدمشقي عز الدين الملقب بسلطان العلماء فقيه شافعي بلغ رتبة الاجتهاد ، ولد عام ٥٧٧هـ ونشأ في دمشق توفى عام ٦٦٠هـ ، وله مؤلفان "التفسير الكبير" الإمام في أدلة الأحكام". انظر الأعلام ٢/٤ ، الشذرات ٣٠١/٣ .

(٦) عبد الله بن محمد بن قدامة الجماعي المقدسي ثم الدمشقي الحنبلي أبو محمد موفق الدين ، فقيه من أكابر الحنابلة ، ولد في "جماعيل في فلسطين عام ٥١٤هـ وتعلم في دمشق ورحل إلى بغداد توفى بدمشق عام ٦٢٠هـ وله تصانيف كثيرة منها "المغني" شرح به مختصر الخراقي في الفقه . وكتاب المنع ذم ما عليه مدعوا التصوف "ذم التأويل" "ذم الموسويين" ، "الكافية في الفقه" . انظر الأعلام ٦٧/٤ ، شذرات الذهب ٨٨/٣ .

(٧) ابن تيمية : شيخ الإسلام أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام "الحراني" الحنبلي ، ولد عام ٦٦١هـ وتوفى عام ٧٢٨هـ ، له مؤلفات كثيرة أعظمها مجموع الفتاوى .

كان له من الإيمان والدين والعلوم الواسعة الكثيرة ما لا يدفعه إلا مكابر ويوجد في كتبه من كثرة الإطلاع على الأقوال ، والمعرفة بالأحوال ، والتعظيم لدعائم الإسلام، ولجانب الرسالة ما لا يجتمع مثله لغيره ، فالمسألة التي يكون فيها حديث يكون جانبه فيها ظاهر الترجيح ، وله من التمييز بين الصحيح والضعيف والمعرفة بأقوال السلف ما لا يكاد يقع لغيره من الفقهاء(١).

ثناء المعاصرين له :

قال الشيخ "عبد الرزاق عفيفي" "وكان أول من عني بتدوين أصول الفقه فيما اشتهر بين العلماء "أبو عبد الله محمد بن إدريس الشافعي" فأملى كتابه المعروف "بالرسالة" وكتبه عنه "الربيع بن سليمان المرادي" ، وقد جمع في إملاء الرسالة بين أمرين إجمالاً :

الأول: تحرير القواعد الأصولية وإقامة الأدلة عليها من الكتاب والسنة ، وإيضاح منهجه في الاستدلال وتأنيده بالشواهد من اللغة العربية .

الثاني: الإكثار من الأدلة لزيادة الإيضاح ، والتطبيق لكثير من الأدلة على قضايا في أصول الشريعة وفروعها ، مع نقاش للمخالفين تزيده جزالة العبارة قوة ، وتكسبه جمالاً ، فكان كتابه قاعدة محكمة بني عليها من جاء بعده ، ومنهجه فيه طريقاً واضحاً ، سلكه من ألف في هذا العلم وتوسع فيه . وقد تبعه في الأمرين "أبو محمد علي بن حزم" في كتابه "الإحكام في أصول الأحكام" بل كان أكثر منه سرداً للأدلة النقلية مع نقدها ، وإيراداً للفروع الفقهية مع ذكر مذاهب العلماء فيها وما احتجوا به عليها ، ثم يوسع ذلك نقداً ونقاشاً ويرجح ما يراه صواباً ، غير أن "أبا محمد" وإن كان غير مدافع في سعة علمه واضطلاعه على النصوص وتمييز صحيحها من سقيمها ، والمعرفة بمذاهب العلماء وأدلتها ، وإيراد ذلك في أسلوب رائع ، وعبارات سهلة واضحة ، لم يبلغ مبلغ الشافعي فقد كان الشافعي أخبر منه بالنقل ، وأعرف بطرقه ، وأقدر على نقده ، وأعدل في حكمه ، وأدرى بمعاني النصوص ومغزاها ، وأرعى لمقاصد الشريعة وأسرارها، وبناء الأحكام عليها ، مع جزالة في العبارة تذكر بالعربية في عهدها الأول ، ومع حسن أدب في النقد ، وعفة لسان في نقاش الخصوم ، والرد على المخالفين(٢).

(١) مجموع الفتاوى ١٩/٤ - ٢٠.

(٢) الشيخ عبد الرزاق العفيفي قدم لكتاب "الإحكام" للأمدي ص(ب،ج).

المطلب الثالث

وفاته

عاش الإمام ابن حزم حياة زاهرة بالمحن والمصائب ، فلم يستذل لها ، ولا انقادت له فلم يستقر بعد بلوغه العشرين من العمر تقريباً في مدينة أو قرية معينة بل كان ينتقل بين المدن والقرى الأندلسية ولم يغادر الأندلس إلى سواها .

انتقل أولاً من قرطبة إلى المريّة ثم منها نفي إلى حصن القصر ، ثم ذهب إلى بلنسية ثم رجع إلى قرطبة ، ولم يطل استقراره هناك ، وقد نزل شاطبة وبها ألف كتابه "طوق الحمامة" (١).

وقد استقر المقام بهذا المجاهد الفذ في قريته منت ليشم ، كتب ابنه أبو رافع بخط يده أن أباه "توفي - رحمه الله - عشية يوم الأحد لليلتين بقيتا من شعبان سنة ٤٥٦هـ فكان - رحمه الله - عمره آنذاك إحدى وسبعين سنة وعشرة أشهر ، وتسعة وعشرين يوماً (٢).

(١) انظر طوق الحمامة ص ٥١.

(٢) الصلة ج ٢ ص ٣٦٩ ، وفيات الأعيان ج ٣ ص ٣٢٨ ، معجم الأدباء ج ١٢ ص ٢٣٦ ، ٢٤٨ ، تذكرة الحفاظ ج ٣ ص ١١٥٤ ، البداية والنهاية ج ١٢ ص ٩٢.

الفصل الثالث

ما امتاز به الإمام ابن حزم الظاهري

وفيه توطئة و أربعة مباحث

المبحث الأول : ما فاق به أقرانه

المبحث الثاني : اعتناؤه بالسنة النبوية

المبحث الثالث : المنهجية الجادة

المبحث الرابع : إتقانه للبحوث النافعة

المبحث الأول

ما فاق به أقرانه

وفيه خمس مطالب

المطلب الأول : علمه و تعظيمه للأدلة من الكتاب والسنة

المطلب الثاني : الاستقراء في البحث وتقصي الاستدلال

المطلب الثالث : الوضوح وعدم الغموض

المطلب الرابع : الحضور الذهني في سرده للأدلة

المطلب الخامس : الشمول عند تأصيل المسائل

توطئة : كل من أنصف علم أن الإمام ابن حزم هو من صنف الرجال الذين لا يسع المرء إلي احترامهم وإكبارهم وأن وسعة مخالفتهم ومباينتهم ، فإن صدق السعي ، وصحة الإرادة ، وحسن التحري ، وقوة الإخلاص - وهي بعض سمات الإمام ابن حزم - هي صفات يعذر بها المخالف وإن اشتط في المخالفة وأمعن في المشاقة ، في حين لا يجد الإنسان في كثير ممن يوافقونه في رأيه ما يدعوه إلي تقديرهم ، لما جبلوا عليه من تبعية ، وانقياد ، وإيثار للسلامة ، وقعود في الهمة ، فالحق هو ما ورثوه عن أسلافهم ، والحجة لا مكان لها عندهم ، مع قلة مبالاة بالتحقيق العلمي ، وما أكثر هذا الصنف الأخير ، وما أقل الصنف الأول ، فالإمام ابن حزم من أولئك الأقلين الذين تركوا آثاراً عظيمة فيمن بعدهم ، واعتنوا بتقويم المسالك وإصلاح الخطط ، مع استحواذ على مؤهلات الإصلاح من ذكاء مفرط ، وعقل مبتكر ، وقلب قوي ، وحافظة واعية ، وهمة وثابة ، ونفس مطبوعة على التصدر والقيادة ، وعلم غزير واسع ، حتى وصف بأنه رأس في علوم الإسلام ، متبحر في النقل ، عديم النظر(١).

لما كان الأمر كذلك كان لابد أن يكون للإمام ابن حزم نصيب وافر بين الأئمة المجددين والمصلحين ، الذين لهم آثار جسام في علوم الإسلام عموماً وفي أصول الفقه خصوصاً. والذي تطمئن له النفس بأن الإمام ابن حزم هو أول أصولي ناب عنه بعد الشافعي ، إذ لا يوجد بين الإمام الشافعي والإمام ابن حزم كتاباً يسامق كتاب الأحكام وهذا ما نقرره في هذا الفصل لمن طلب البرهان ، نعم كان الإمام ابن حزم على قدر من الانفراد بالرأي الذي نتج عنه ظاهريته التي بلغت حد الشذوذ ، مع شدة في العبارة لا ترحم صغيراً ولا كبيراً حتى إنه امتحن لتطويل لسانه على العلماء وشرد عن وطنه(٢) ومع ذلك فقد ادخر الله له نفائس انقرد باستخراجها من آثار السلف(٣) وهذه النفائس هي مبتغانا في هذا الفصل. ولما كان الإمام ابن حزم على هذا التفاوت في صفاته فلا جرم كان الرأي فيه متفاوتاً ، والموقف منه شديد التباين ، فقد أعرض عن تصانفيه جماعة من الأئمة وهجروها ، ونفروا منها ، وأحرقت في وقت ، واعتنى بها آخرون من العلماء ، وفتشوها انتقاداً واستفادة ، وأخذوا ومؤاخذاً ، ورأوا فيها الدر الثمين ممزوجاً في الرصف بالخرز المهيئ ، فتارة يطربون ، ومرة يعجبون ومن تفرد بهزؤون(٤).

(١) انظر سير أعلام النبلاء ١٨ - ١٨٦.

(٢) انظر سير أعلام النبلاء ١٨ - ١٩٨.

(٣) انظر ابن حزم حياته وعصره آراؤه وفقهه للعلامة محمد أبو زهرة ص٤.

(٤) سير أعلام النبلاء ١٨ - ١٨٧.

المطلب الأول

علمه و تعظيمه للأدلة من الكتاب والسنة

الذي يهمننا كثيراً في كتابات الإمام ابن حزم بخصوص هذه الرسالة كتابه الإحكام ، فتجد كل أبوابه تدور حول هذا المبحث ، فشدة الإلتباع لنصوص الكتاب والسنة وتعظيمها عنده دين وعقيدة ، وليس قاعدة مقررة فحسب ، فقد كان - رحمه الله - من أشد الناس تعظيماً لهذين الأصلين ، ولعل شدة تعظيمه لهما هي أساس علوه في الأخذ بظواهر الكتاب والسنة وهي أيضاً وراء تغليظه على من خالفهما في مواطن لا تحصى من الإحكام فهو يقول في معرض الاستشهاد بقول الله تعالى (فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ) (١) هذه كافية لمن عقل وحذر وآمن بالله واليوم الآخر ، وأيقن أن هذا العهد عهد ربه تعالى إليه ، ووصيته عز وجل الواردة عليه فليفتش الإنسان نفسه ، فإن وجد في نفسه مما قضاه الله أو رسول الله ﷺ في كل خير يصححه مما قد بلغه ، أو وجد نفسه غير مسلمة لما جاءه عن رسول الله ﷺ ، أو وجد نفسه مائلة إلى قول فلان وفلان ، أو إلى قياسه واستحسانه ، وأوجد نفسه تحكم فيما نازعت فيه أحداً دونه رسول الله ﷺ متى صاحت فمن دون ، فليعلم أن الله تعالى قد أقسم، وقوله الحق إنه ليس مؤمناً وصدق الله تعالى ، وإذا لم يكن مؤمناً فهو كافر، ولا سبيل إلى قسم ثالث.

وليعلم أن كل من قلد ، من صاحب أو تابع أو مالكاً أو أبو حنيفة والشافعي وسفيان والأوزاعي وأحمد وداود رضي الله عنهم متبرءون منه في الدنيا والآخرة ، ويوم الأَشهاد ، اللهم إنك تعلم أنا لا نحكم أحداً إلا بكلامك وكلام نبيك - الذي صليت عليه وسلمت - في كل شيء مما شجر بيننا ، وفي كل ما تنازعنا فيه ، واختلفنا في حكمه ، وأنا لا نجد في أنفسنا حرجاً مما قضى به نبيك ، ولو أسخطنا بذلك جميع من في الأرض وخالفناهم ، وصرنا دونهم حزباً وعليهم حرباً ، وأنا مسلمون لذلك طيبة أنفسنا عليه ، مبادرون نحوه لا نتردد ولا نتلصقاً ، عاصون لكل من خالف ذلك ، موقنون أنه على خطأ عندك ، وأنا على صواب لديك . اللهم فثبتنا على ذلك ولا تخالف بنا عنه (٢) .

(١) سورة النساء الآية ٦٥.

(٢) انظر الإحكام في أصول الأحكام ٩٥/١ - ٩٦.

لذلك ذاعت في كتاب المحلى هذه الكلمة "لا حجة في قول أحد دون رسول الله ﷺ" (١).

وقد قال شيخ الإسلام ابن تيمية "أن في كتب الإمام ابن حزم من التعظيم لدعائم الإسلام ولجانب الرسالة ما لا يجتمع مثله لغيره" (٢).

وهو في هذا السبيل يسوى بين الكتاب والسنة في الحجية وفي وجوب الطاعة والتعظيم ، فهما مرتبة واحدة في الاستدلال وهي مرتبة النصوص ، أي أنهما - على حد تعبير الشيخ محمد أبو زهرة رحمه الله ، مصدر واحد ذو شعبتين ، وهما متماثلان في الإثبات ، وأن أحدهما هو الأصل الذي به ثبت به الثاني، وإنه بعد ثبوته يصير له قوة الأول في التعرف لأحكام الشرع الشريف (٣). وفي تقريره لهذا الأصل يقول:

والقرآن والخبر الصحيح بعضهما مضاف إلي بعض ، وهما شيء واحد في أنهما من عند الله تعالى ، وحكمهما حكم واحد في باب وجوب الطاعة لهما (٤) قال تعالى (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَوَلَّوْا عَنْهُ وَأَنْتُمْ تَسْمَعُونَ) وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ (٥).

ويقرر أيضاً أن السنة من الذكر لأنها وحي ، فهي إذا محفوظة كالقرآن ، لقول الله تعالى (إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ) (٦) فأخبر الله تعالى أن كلام نبيه وحي والوحي بلا خوف ذكر ، والذكر محفوظ بنص القرآن.

فصح بذلك أن كلامه ﷺ كله محفوظ بحفظ الله عز وجل مضمون لنا أنه لا يضيع منه شيء ، إذ ما حفظ الله تعالى باليقين لا سبيل إلي أن يضيع منه شيء فهو منقول إلينا كله . فله الحجة علينا أبداً (٧).

ومما بناه الإمام ابن حزم على هذه التسوية: أن السنة يجوز أن تنسخ القرآن سواء المتواترة أو الآحاد ، مخالفاً بذلك ما اشتهر عند أكثر الأصوليين من منع ذلك ، مستدلاً بما قرره من أن وجوب طاعة النبي ﷺ كوجوب طاعة ما جاء في القرآن ولا

(١) انظر المحلى ١٤٤/٧ ، ١٤٥/٧ ، ١٨٥/١١ .

(٢) انظر مجموع فتاوى شيخ الإسلام ٢٠/١٩/٤ .

(٣) انظر ابن حزم للعلامة محمد أبو زهرة ص ٣٢٦ .

(٤) انظر الإحكام ٩٤/١ .

(٥) سورة الأنفال آيتا ٢٠ ، ٢١ .

(٦) سورة الحجر الآية ٩ .

(٧) انظر الإحكام ٩٤/١ .

فرق ، وأن الجميع وحي من عند الله. يقول: اختلف الناس في هذا بعد أن اتفقوا على جواز نسخ القرآن بالقرآن وجواز نسخ السنة بالسنة ، فقالت طائفة: لا تنسخ السنة بالقرآن ولا القرآن بالسنة ، وقالت طائفة: جائز كل ذلك ، والقرآن ينسخ بالقرآن وبالسنة ، والسنة تنسخ بالقرآن وبالسنة.

قال أبو محمد: وبهذا نقول وهو الصحيح ، وسواء عندنا السنة المنقولة بالتواتر والسنة المنقولة بالآحاد ، كل ذلك ينسخ بعضه بعضاً ثم يقول: فإن السنة مثل القرآن في وجهين.

أحدهما: أن كلاهما من عند الله عز وجل لقول تعالى (وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ۖ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ) (١).

الثاني: استواءهما في الطاعة بقوله تعالى (مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ) (٢) (أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ) (٣). وإنما اختلفا في ألا يكتب في المصحف غير القرآن ، لا يتلى معه غيره مخلوطاً به ، وفي الإعجاز فقط (٤).

ومن الآثار الحميدة لوحدة نصوص الأصلين عند الإمام ابن حزم: أنه لم يوجد له بحث في أن القرآن حاكم على السنة بحيث يجب أن يعرض الحديث على القرآن حتى يقبل ، وذلك لأنهما عنده متحدان لا ينفصلان أصلاً (٥) ومما يحمد أيضاً من آثار هذا الأصل: قوله بأنه لا تعارض قط بين النصوص: لا بين آيتين ، ولا بين حديثين ، ولا بين آية وحديث.

قال علي: إذا تعارض الحديثان، أو الآية والحديث، فيما يظن من لا يعلم، ففرض على كل مسلم استعمال كل ذلك، لأنه ليس بعض ذلك أولى بالاستعمال من بعض، ولا حديث بأوجب من حديث آخر مثله، ولا آية أولى بالطاعة لها من آية أخرى مثلاً، وكل من عند الله عز وجل، وكل سواء في باب وجوب الطاعة والاستعمال ولا فرق.

ثم يقول: ويبين صحة ما قلنا - من أنه لا تعارض بين شيء من نصوص القرآن ونصوص كلام النبي ﷺ وما نقل من أفعاله - قول الله عز وجل مخبراً عن رسوله عليه

(١) سورة النجم آيتا ٣ ، ٤ .

(٢) سورة النساء ٨٠.

(٣) سورة النساء ٥٩.

(٤) انظر الإحكام ٥٠٥/٤ - ٥٠٦.

(٥) انظر ابن حزم حياته وعصره وآراؤه وفقهه ٣٢٦.

السلام(وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ۖ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ)(١) وقوله تعالى (لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ)(٢) وقال تعالى (وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا)(٣) فأخبر عز وجل أن كلام نبيه ﷺ وحي من عنده ، كالقرآن في أنه وحي ، وفي أنه كل من عند الله عز وجل ، وأخبرنا تعالى أنه راضي عن أفعال نبيه ﷺ ، وأنه موافق لمрад ربه تعالى فيها لترغيبه عز وجل في الاتساع به عليه السلام ، فلما صح أن كل ذلك من عند الله تعالى ، ووجدناه تعالى قد أخبرنا أنه لا اختلاف فيما كان من عنده تعالى - صح أنه لا تعارض ولا اختلاف في شيء من القرآن والحديث الصحيح ، وأنه كله متفق عليه كما قلنا ضرورة وبطل مذهب من أراد ضرب الحديث بعضه ببعض ، أو ضرب الحديث بالقرآن، وصح أن ليس شيء من كل ذلك مخالفاً لسائره ، علمه من علمه، وجهله من جهله(٤). على أن الإمام ابن حزم قد جمع تحت تأثير الفهم الظاهري للنصوص العامة التي تبين استيفاء القرآن والسنة لحقائق الدين من مثل قوله تعالى (الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ)(٥) وقوله تعالى (مَا فَرَطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ)(٦) فذهب إلى إبطال القياس والتعليل وما ينصل بذلك ، مقررأ أن نصوص الكتاب والسنة شاملة لجميع الحوادث في جميع الأزمنة ، معارضاً ما ذهب إليه أكثر الأئمة الفقهاء من أن النصوص جاءت بالكماليات دون الجزئيات ، ذاهباً إلى أن النصوص لم تدع كلياً ولا جزئياً إلا بينته.

ولسنا بصدد مناقشة الإمام ابن حزم في رأيه هذا في هذا المبحث لأننا سوف نورد في خصائصه السلبية ، ولكن هدفنا إلى الربط بين الغلو في رفض القياس ، وبين خاصة تعظيمه للنصوص والإذعان لسلطانها ، وإن كان لابد أن نشهد أن محبة الكتاب والسنة وعظم إتباعهما ما كان لينتجا ترك القياس والتعليل مهما ملكا من نفس الإنسان لولا قصور في النظر وسطحية في تقرير الحكم لم يخل منهما الإمام ابن حزم في استدلاله لإبطال القياس .

الذي نخرج به أن الإمام ابن حزم بلغ شأواً بعيداً في علمه و تعظيمه لنصوص الكتاب والسنة .

(١) سورة النجم آيتا ٣ ، ٤ .

(٢) سورة الأحزاب الآية ٢١.

(٣) سورة النساء الآية ٨٢ .

(٤) انظر الإحكام ١٥٨/٢ - ١٧١ ، حياته و عصره.

(٥) سورة المائدة الآية ٣.

(٦) سورة الأنعام ٣٨.

المطلب الثاني

الاستقراء في البحث وتقصي الاستدلال

الاستقراء "هو حكم على كلي لوجود ذلك الحكم في جزئيات ذلك الكلي إما كلها وهو الاستقراء التام ، وإما أكثرها وهو الاستقراء المشهور". (١)

ذكر العلامة أبو زهرة - رحمه الله - أن الإمام ابن حزم - رحمه الله - كان يعتمد على الاستقراء في دراساته وقد ضرب المثل على استقراء الإمام ابن حزم المتبع وما ينتجه من الحكم برسالته "طوق الحمامة" ورسالته مداواة النفوس ، كما تكلم عن استقراءاته التاريخية التي تدل على عقله البارع وعلى القدرة على التتبع (٢)

ونجد الإمام ابن حزم كثيراً ما يصرح بأنه استقصى ما في الباب يقول - رحمه الله - بعد أن رد على أدلة القائلين بالقياس: "وقد تقصيناه - والحمد لله رب العالمين - ولم ندع منه بقية". (٣)

وقد بلغ هذا التقصي ما يزيد على مائة وخمسين صفحة ، هذا فيما يتعلق بشبهات المخالفين ، دع ما ذكره بعد في بيان أدلته هو على إبطال القياس .

والاستقراء الذي نسبناه للإمام ابن حزم ليس هو الاستقراء المنطقي المحض الذي سبق تعريفه في أول المبحث فإنه لا يصح منه إلا الاستقراء التام ، وأما الاستقراء الناقص - وهو الكثير الغالب - فهذا عنده استقراء فاسد ، وهو يصفه بأنه تكهن من المتحكم به وتخرص ، وتسهل في الكذب ، وقضاء بغير علم ، وغرور للناس ولنفسه أولاً التي نصيحتها عليه أوجب. (٤)

ولسنا هنا بصدد مناقشته في موقفه من الاستقراء المنطقي ، وإنما أردنا أن نوضح أن استقراء الأدلة والمصادر التي يبنى عليها الحكم ، فلا يكتفي بذلك بعض الأدلة الواردة لقوة دلالتها على المطلوب مع الإعراض عن غيرها مما يتعلق بالباب مما قد يحتوي على شبهة تفيد الخصم .

والحق أن الإمام ابن حزم لصراحته مع نفسه وصدقه في استدلاله لا يتغاضى عن مثل تلك الصور من الأدلة ، وإنما يستوفي كل ما يجده في الباب مبيناً وجه دلالته ، ودافعاً وجه استدلال الخصم به ، وهذه من محامد منهجه ، إذ كثيراً ما نجد أرباب المذاهب يقتصرون في احتجاجاتهم على ما يؤكد آراؤهم من كل وجه مع

(١) المعجم الفلسفي للدكتور مراد وهبه ص ٢٥.

(٢) انظر ابن حزم * حياته وعصره آراؤه وفقهه. ص ١٧

(٣) الأحكام ٤٧٥/٧.

(٤) التقريب لحد المنطق ص ١٦٤.

إهمال الأدلة التي تعكّر على مذاهبهم ، فضلاً عن الأدلة الصريحة التي يحتج بها من خالفهم ، ولا شك أن مثل هذا المسلك لا يشفي الصدور ولا يورث طمأنينة القلب، إذ تصير النصوص التي أهملوها والشبهات التي لم يتعرضوا لها بمثابة غصة في الحلق لا تسوغ ما قرروه من أحكام وإذا نظرنا إلى سلوك الإمام ابن حزم لهذا المنهج المقرر نظرياً نجده في مقدمة كتاب الفصل في انتقاده للمصنفين في الديانات والمقالات ... وبعض حذف وقصر ، وقللاً واختصر ، وأضرب عن كثير من قوى معارضات أصحاب المقالات ، فكان في ذلك غير منصف لنفسه في أن يرضى لها بالغبن في الإبانة ، وظالماً لخصمه في أن لم يوفه حق اعتراضه، وباحساً حق من قرأ كتابه إذ لم يفند به غيره.(١)

فهذا النص يدل بجلاء على أن استقراء حجج الخصم واستقصاء شبهات المخالف هو أصل منهجي ثابت عند الإمام ابن حزم ، ويلاحظ هنا المسلك في جميع تصانيفه يصدر من هذه القاعدة المقررة . وإذا جئنا إلى جانب التقرير والنفي ورد الشبهات نجده يسلك فيهما النهج الاستقرائي .

فإذا أخذنا التقرير والإثبات : فهذا كثير في بحوثه لا تكاد تخلو مسألة من ذلك ، والدليل على قولنا الأمثلة القوية التي أوردها في إبطال القياس بالبراهين الضرورية عنده ، حيث أورد عدد كبيراً جداً من النصوص القرآنية والنبوية والاستدلالات العقلية التي تؤكد مذهبه.(٢)

وأما جانب النفي الاستقرائي : فهو عنده من الأدلة القوية الشائعة في استدلالاته ، فهو كثيراً ما يستدل على بطلان القول بعدم الدليل عليه ، وهذا لا يكون إلا عن استقراء وتتبع دقيق .

الدليل على قولنا : ما ذكره في إبطال التقليد ، حيث سأل القائلين بالتقليد أن يعطوه من الأعصار الثلاثة المحمودة واحداً قلد عالماً كان قبله فأخذ بكل قوله ولم يخالفه في شيء ، ويقسم أنهم لن يجدوه أبداً ، ومن الأمثلة أيضاً ما ذكره في وجوب الأخذ بخبر الواحد ، حيث نفى عن جميع الصحابة والتابعين أن يكون أحد منهم قد قال لمستفتيه ، لا يجوز لك أن تعمل بما أخبرتك عن رسول الله ﷺ حتى يخبرك بذلك الكواف (٣) ، وأما استقراء الشبهات للرد عليها فهذا أيضاً كثير جداً

(١) الفصل في الملل والأهواء والنحل لابن حزم ١١/١ .

(٢) انظر الإحكام ٤٨٧/٨ - ٥٤٦ .

(٣) انظر الإحكام ١١٣/١ .

، ويكفي مثلاً على ذلك ما أشرنا إليه قبل قليل من أن ابن حزم استوفى في الرد على شبهات القائلين حوالي مائة وخمسين صفحة ، يتبع فيها ما أورده على كثرة تنوعه . والملاحظ أن استقراء الشبهات من الأمور التي أولاها ابن حزم عناية بليغة ، وهي من قواعد منهجه التي مارسها في كتبه بصورة جلية ، ولم يكتف بذلك حتى قررها نظرياً ، وبين أنه لا بد من الجواب عن معارضات الخصم دون تقصير أو تغاض . وقد يسر الله للإمام ابن حزم حسن الاستقراء بما حباه من حافظة قوية ، وسعة إطلاع ، وطول نفس في البحث والاستقصاء لا يتهياً إلا لذوي الأنفس الكبار . والحق لو وافقنا الإمام ابن حزم أو خالفناه في نتائج استقراءه فإننا نقر بأنه منهج حميد ومسلك رشيد لتحقيق الحق إذا تم على وجهه الصحيح ، إذ إن عدم التقصي من شأنه أن يسقط بعض ما فيه منفعة ، بل قد يكون المتروك أهم من المذكور ، أو يكون فيه نقص له ، أو غير ذلك مما لا ينكشف إلا بالتتبع ، وإنما قعد عن سلوك النهج الاستقرائي كثير من الباحثين لقلة المحصول ، وضعف الآلة ، والكسل والاستئمان إلى ما تناقلته الكتب ، واعتقاد أن الأول ما ترك شيئاً للآخر ، أو لأمر هو أدهى من هذا وأمر ، وهو ما ذكرناه من إهمال النصوص والأدلة التي يتمسك بها الخصوم ، وذلك تعصباً للرأي وجموداً على ما ورثوه عن أئمتهم .

المطلب الثالث

الوضوح والجلاء وعدم الغموض

لقد أوتي الإمام ابن حزم بسطة في البيان لا تخفى على من له حس أدبي وذوق عربي ، وقد ألقى ذلك بظله على كتبه العلمية حيث تميزت بنصاعة البيان ، وإشراق العبارة ، مع سهولة المنطق وقرب المأخذ ، وبسط آرائه وتفصيلها ، وضرب الأمثلة ، ووفرة الأدلة . كل هذه الخصال جعلت لكتبه نفوذاً وتأثيراً ، لسهولة ، وبلاغتها وقوة إقناعها وما حدّ من ذلك النفوذ إلا شدة العبارة .

ولعل هذا من توفيق الله لهذه الأمة ، حيث لو كان مع كل هذه السمات رقة العبارة وعفة اللسان لربما استولى على عامة الناس ، واقتتوا بمذهبه الظاهري على ما فيه من هنات وطامات .

فالظاهر من كتابات الإمام ابن حزم السهولة ، وهي ليس مجرد طبيعة فيه كما قد يظن ، نعم للطبع والملكة نصيب من تلك السهولة الممتعة التي اصطبغت بها كتبه - رحمه الله - ولكن الحق أن الإمام ابن حزم كان ينتهج ذلك انتهاجاً ، ويعمد إليه عمداً بقصد الإبانة والإفهام ، فهي خاصة منهجية فيه وليست سلوكاً جبلياً فحسب .

وإذا أردنا أن ندلل على هذا الكلام انظر إلي ما جاء في مطلع "الفصل" في وصف الذين صنفوا في الديانات والمقالات يقول: "وكلهم إلا تحلة القسم عقد كلامه تعقيداً يتعذر فهمه على كثير من أهل الفهم ، وحلق على المعاني من بعد حتى صار ينسي آخر كلامه أوله ، وأكثر هذا منهم ستائر دون فساد معانيهم ، فكان هذا عملاً منهم غير محمود في عاجله وآجله. (١)

فهو يرى أن إغلاف الأسلوب ستائر لستر فساد المعاني ، أي إن من كان صحيح المعاني سديد الحجج فعليه أن يكون مبيناً في منطقته واضح العبارة ليس في كلامه غموض ، فظهر أن سداد الحجة ووضوح الكلام عنده قرينان .
فنجد أن الإمام ابن حزم قد صرح بأنه بالغ في التسهيل بقصد الإفهام ، حيث قال: "وبالغنا في بيان اللفظ وترك التعقيد" (٢).

(١) انظر الفصل في الملل والأهواء والنحل ١١/١ ، ١٢ .

(٢) انظر الفصل في الملل والأهواء والنحل ١٢/١ .

ولا تجد عبارة أصرح من هذه في بيان أن الوضوح من صميم منهجه فليس هو مظهراً اتفاقياً صادفناه في أسلوبه ، وإنما هو قانون متبع بالغ الإمام ابن حزم في التزامه عملياً وتقريره نظرياً .

والإمام ابن حزم رغم جودة أسلوبه وحسن ألفاظه في كتابته العلمية فإنه كما يقول الشيخ أبو زهرة "لم يخرج بها إلي ناحية غير المنهاج العلمي" (١). ويقول أيضاً: "أسلوب الإمام ابن حزم العلمي كنفسه وفكره ، وكلاهما مشرق واضح" (٢).

وقد أرجع أبو زهرة وضوح الكتابة العلمية عند الإمام ابن حزم إلي ثلاثة أقسام:

الأول: إطنابه ، فإن الإطناب جعل المعاني مكشوفة ، يجدها ملتصقة بأسر كلفة وأقل مجهود .

الثاني : استيلاؤه على المعاني التي يكتبها واستيعابه للموضوع ، فهو يكتب كتابه الفاهم .

الثالث : "حسن تقسيمها ، وحصر موضوعاتها ، وتجزئتها" (٣). يضاف إلي كلام أبو زهرة سبب رابع وهو حسه الأدبي ، وبلاغته الذاتية ، وحسن بيانه ، ولا يخفى تأثير ذلك على أسلوبه العلمي .

(١) ابن حزم حياته وعصره آراؤه وفقهه ٢٢٠.

(٢) المصدر نفسه والصفحة .

(٣) المصدر نفسه والصفحة .

المطلب الرابع

الحضور الذهني في سرده للأدلة

ومن الظاهر البين في مؤلفات الإمام ابن حزم عامة وكتبه الأصولية خاصة حرصه الشديد على دعم آرائه بالأدلة والبراهين ، فهو لا يقرر رأيه بطريق التحكم العاري عن الحجة ، ولا يكاد يوجد له قول في دقيق الأمور وجليها إلا مشفوعاً بدليله ، وقد التزم ذلك في كل ما قرره سواء في العقائد أو الفقهيات ، أو القواعد الأصولية على نحو يميزه عن أكثر المتكلمين في تلك العلوم ممن غلب عليهم نقل أقوال أئمتهم وأصحابهم في المذهب دون أن يؤسسوا كلامهم على الدليل الشرعي مباشرة ، وإن ذكروا الدليل فكثيراً ما يوردون استدلال غيرهم به وليس فهمهم له .

وتجد أن كتاب الإحكام هو أشد كتب الأصول باستثناء "الرسالة" للشافعي اعتناء بالبرهنة على كل أصل أو مسألة مع الاقتصار على صحيح الأخبار دون ضعيفها ، وكم كنا نأمل أن تكون مسيرة علم الأصول على هذا الحذو . فالإمام ابن حزم يعي ما يفعل ، ويقصد إليه ويتخذه منهجاً يسير عليه ويدعوا إليه ، ومن عباراته الأثيرة الذائعة في هذا الباب قوله "كل قول بمجرد الدعوى بلا برهان فهو مطروح ساقط" (١).

ويقول في قوله تعالى (قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ هُوَ الْغَنِيُّ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ إِنَّ عِنْدَكُمْ مِّنْ سُلْطَانٍ بِهَذَا أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ❖ قُلْ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكُذِبَ لَا يُفْلِحُونَ) (٢) ، ففي هذه الآيتان بيان أنه لا يقبل قول أحد إلا بحجة ، والسلطان ههنا بلا اختلاف من أهل العلم واللغة هو الحجة ، وأن من لم يأت على قوله بحجة فهو مبطل بنص حكم الله عز وجل ، وأنه مفتر على الله تعالى وكاذب عليه عز وجل بنص الآية لا تأويل ولا تبديل ، وأنه لا يفلح إذا قال قوله لا يقيم على صحتها حجة قاطعة (٣) ، وقد كان حب البرهان دافعه لتصنيف كتابه "التقريب لحد المنطق" ، وإن كنا نتحفظ على موقفه من المنطق ، إلا إننا نستشهد بتصنيفه لهذا الكتاب على ما قصده من بيان طريق البرهان لا على محتواه ، ولذا كان الإمام ابن حزم يعتبره كالمقدمة له حيث يقول في الإحكام وقد بينا كل برهان حق صحيح في كتابنا الموسوم بالتقريب .

(١) انظر الإحكام (١٠٤/١ ، ١٤٦ ، ١٢١/٢).

(٢) سورة يونس الآيتان ٦٨ ، ٦٩.

(٣) انظر الإحكام ٢٣/١.

فكان - رحمه الله - كثيراً ما يحيل إليه فيما يقرره من أصول يقول في أحد المواضع : وقد بينا هذا النوع من البرهان في كتابنا في حدود الكلام المعروف بالتقريب (١).

ومما مهد به الإمام ابن حزم لطريق الاستدلال والبرهنة : ذلك البحث الجيد الذي في الباب الثالث من "الإحكام" في إثبات حجج العقول ، وجعله بمثابة تمهيد للكتاب .

وقد وصفت حجج الإمام ابن حزم عموماً بأنها صارمة ، مباشرة ، بسيطة ، ذات سلوك منهجي ، لا يعرف الميل أو الإفراط ، وهي غالباً أصيلة ، وذات قالب جديد. وفي كتاب "المحلى" انعكاسات صادقة لهذه الخاصية المنهجية العظمية ، ويكفي أن نلتقط هذه العبارات التي تناثرت وتكررت في أنحاء كتاب المحلى فهذه العبارات يقولها الإمام ابن حزم بعد ذكر اختلاف الأئمة في المسألة (فلما اختلفوا كما ذكرنا وجب أن ينظر فيما احتجت به كل طائفة) (٢).

ويقول : ومن الباطل الفاحش أن يكون ابن عمر أو غيره حجة في مكان غير حجة في مكان آخر (٣).

ويقول : هذا خطأ لأنه دعوى بلا برهان (٤).

ويقول : ليس من لا يعرف حجة على من يعرف (٥).

(١) انظر مناظرات في الشريعة الإسلامية بين ابن حزم والباقي للدكتور عبد المجيد تركي ، ترجمة الدكتور عبد الصبور شاهين (٢٤٧).

(٢) انظر المحلى (١٩٥/٩)، (٩٦/٢)، (١٦٥/١١).

(٣) انظر المحلى ١٥١/٧ : ٣٤٨/٧.

(٤) انظر المحلى ٢٢٧/٢.

(٥) انظر المحلى ٩٨/٤.

المطلب الخامس

الشمول عند تأصيل المسائل

الإمام ابن حزم في كثير من المواضع كلامه منصب على الجانب الفقهي لذا كان أكثر نقده متوجهاً إلي الفقهاء ، ولكن نجده في أصوله كان أعم من أن ينحصر في الدائرة الفقهية ، بل إنه يتعدها إلي دائرة العقيدة وغيرها مما تضمنته نصوص القرآن والحديث .

ومن الأصول التي اتصفت بها الشمولية عند ابن حزم:

- ١ - قوة الحرص على البرهنة والاستدلال .
 - ٢ - شدة الإتيان والتعظيم لنصوص الكتاب والسنة .
 - ٣ - وجوب الأخذ بخبر الواحد واعتباره حجة في العقائد والأعمال .
 - ٤ - الأخذ بالصحيح من الأخبار ورفض الضعيف منها .
 - ٥ - اعتبار الدليل العقلي .
 - ٦ - رفض التقليد في العقائد والأعمال .
 - ٧ - الاستقراء .
 - ٨ - القول بأن أدلة الحق لا تتناقض .
- وهذه كلها من خصائص بحثه الأصولي ، فهي لا يقتصر أثرها على الجانب الفقهي العملي كما يتبين من فحواها .
- ومما يؤكد ذلك أن كثيراً من هذه السمات التي لمسناها في كتبه الأصولية وخاصة "الإحكام" هي نفسها التي تسم كتبه في العقيدة والكلام وخاصة "الفصل في الملل والأهواء والنحل" .

المبحث الثاني

اعتناءه بالسنة النبوية

وفيه ثلاثة مطالب

المطلب الأول : تمسكه بالصحيح من الأخبار والآثار

المطلب الثاني : تقريره بأن خبر الواحد موجب للعلم والعمل

المطلب الثالث : إصراره على أن أدلة الحق لا تتناقض

المطلب الأول

تمسكه بالصحيح من الأخبار والآثار

هذا الأصل من أجل أصول الإمام ابن حزم التي خص بها - رحمه الله - وقل من يشاركه فيها ، حيث قد أخلت أكثر كتب الأصول ، فيكفي أن ينسب الحديث للنبي ﷺ حتى يجعلوه دليلاً ، دون نظر إلي سنده وحاله من الصحة والضعف ، بل ودون عزوه إلي كتاب من كتب السنة المعتمدة .

فنجد هذه الخاصية والدقة المنهجية هي سبيل الإمام ابن حزم ، إذ كيف نبني حكماً أصولياً أو حتى فرعياً على حديث لم يثبت عن النبي ﷺ ، أو على الأقل مشكوك في صحته ؟ فإن النبي ﷺ يقول: "من حدث عني بحديث يرى أنه كذب فهو أحد الكذابين" (١).

فإذا كان هذا التعليل في مجرد الرواية ، فكيف لو استدل به واستخرج منه حكماً شرعياً وأفتى بموجبه ، أليس بذلك يكون قد شرع من الدين ما لم يأذن به الله ؟

فتجد الإمام ابن حزم صريحاً واضحاً في تقرير هذا الأصل حيث يقول: "جاء النص ثم لم يختلف فيه مسلمان في أن ما صح عن رسول الله ﷺ أنه قاله ففرض إتباعه ، وأنه تفسير لمراد الله تعالى في القرآن (٢) ، ويقول - رحمه الله - في معرض رده على من استدلوا بحديث لا يصح منكرهم عليهم "ولا أضل ممن يحتج بما لا يصح ، نعوذ بالله من الخذلان" (٣).

وهكذا كان مسلكه العملي فيما يستدل به ، ولذا كان كثيراً ما يبطل آراء مخالفيه بناء على ضعف سند الحديث ، ومن أمثلة ذلك فقوله فيما روي عن عمر من أنه أنكر على ابن مسعود وأبي الدرداء وأبي ذر - رضي الله عنهم - كثرة روايتهم للحديث: "هذا مرسل ومشكوك فيه من شعبة ، فلا يصح ولا يجوز الاحتجاج به" (٤). وإذا أخذنا أيضاً كتاب "المحلى" فنجد أثر هذا الأصل العظيم جلياً جداً وقوي فقد التزمه في جميع مسائل الكتاب التي أربت على ألفي مسألة .

(١) رواه مسلم في مقدمة صحيحة ص ٩ تعليقاً بدون إسناد ، ووصفه بأنه مشهور ، ورواه الإمام أحمد (٢٥٢، ٢٥٥/٤) ، وأبو نعيم في الحلية (٣٥٦/٤) وصححه الشيخ الألباني في صحيح الجامع حديث ٦١٩٩.

(٢) انظر الإحكام ١/١٠٨.

(٣) انظر الإحكام ٢/٢١٣.

(٤) انظر الإحكام ٢/٢١٦.

وأول ما يطالعنا في الكتاب تلك المقدمة القصيرة التي بين فيها أن من أهم مقاصد الكتاب "الوقوف على جمهرة السنن الثابتة عن رسول الله ﷺ وتميزها مما لم يصح ، والوقوف على الثقات من رواة الأخبار وتميزهم من غيرهم .

وقد ختم هذه المقدمة التي لا تبلغ صفحة بشرط جليل أخذه على نفسه في كتابه هذا يقول: "وليعلم من قرأ كتابنا أننا لم نحتج إلا بخبر صحيح من رواية الثقات مسند ، ولا خالفنا إلا خبراً ضعيفاً فبيناً ضعفه ، أو منسوخاً فأوضحنا نسخته ، وما توفيقي إلا بالله" (١).

ويرى الإمام ابن حزم أن الاستدلال بالأحاديث الضعيفة أمر محرم لا يصدر إلا عن جاهل بضعفها ، أو قليل الدين ، يقول - رحمه الله - بعد أن ذكر طائفة من الأحاديث الواهية في الأضحية: "لا يحتج بهذه الآثار إلا قليل العلم بوهيها فيعذر ، أو قليل الدين يحتج بالباطيل التي لا يحل أخذ الدين بها" (٢).

فنجد أن المسائل التي رد فيها الإمام ابن حزم على استدلال مخالفيه كثيرة جداً لا تحصى ولا تعد التي بنوها على ضعف أدلتهم ، فذلك كثير في المحلى بحيث يحتاج حصره زمناً طويلاً ، وهو لا يكتفي بالتضعيف المجمل في كثير من الأحيان ، وإنما يبين علة الحديث الذي يضعفه ، وما قاله أثمة الجرح والتعديل في رواته (٣).

أما ما صححه من الحديث فلا حاجة به أن يبين صحته ، إذ مجرد احتجاجة به تصحيح له ، لما شرطه في المقدمة (٤).

ونجد أن الإمام ابن حزم ربما بين صحة الحديث عند الحاجة ، خاصة إذا كان الحديث متميزاً في الصحة ، كأن يوصف بأنه "خبر صحيح في غاية الصحة عن ثلاثة من أمهات المؤمنين رضي الله عنهن (٥) ، أو يقول عند حالة الإسناد "عجيب كأن عليه من شمس الضحى نوراً" (٦).

ومن مظاهر عنايته بالنقول تصحيحاً وتضعيفاً وضبطاً: كثرة إيرادهِ للأسانيد حيث جاء في كتابه المحلى "قد روينا من طريق ابن أبي شيبة نا حفص ابن غياث ... ، ثم ذكر الإسناد فنلاحظ أن الإمام ابن حزم لم يلق ابن أبي شيبة ، وإنما سمع كتابه

(١) انظر المحلى ٢/١ ط دار الفكر.

(٢) انظر المحلى ٣٦٤/٧.

(٣) انظر أمثلة ذلك في المحلى (٧/١٧٠ ، ٣٥٧ ، ٤٨٢).

(٤) انظر المقدمة ص ٢٥ ، المحلى ٢/١.

(٥) انظر المحلى ٤٠٨/١١.

(٦) انظر المحلى ١٦٣/١١.

"المصنف" فابتدأ الإسناد من ابن أبي شيبه صاحب الكتاب ، وأسقط سنده هو إلي الكتاب" (١).

فهذه الأسانيد كان عزوها إلي كتب السنة كاف ، إلا أنه ينحو في ذلك نحو أئمة الحديث ، وهذه من إمارات تمكنه في علم الحديث ، وقد يذكر السند من كتاب من كتب السنة التي سمعها عن مشايخه ، أو يذكر سنده هو من شيخه إلي رسول الله ﷺ مع ما يكون في ذلك الإسناد من طول ، حيث أورد إسنادين متواليين في كل منهما تسعة رجال قبل النبي ﷺ (٢)، ولم يقصر الإمام ابن حزم عنايته بصحة النقل على الأحاديث المرفوعة عن النبي ﷺ وإنما ميز بين الصحيح والضعيف في الآثار الواردة عن الصحابة رضي الله عنهم (٣)، وهذي التحري يدل على ما بلغ إليه الإمام ابن حزم من عناية بتوثيق النقول وتحقيق الأدلة .

وكلمة أخيرة يجب التنبه لها أن الإمام ابن حزم لم يتكلم في التصحيح والتضعيف إلا بأهلية وتمكن من علم الحديث ، فهو معدود من المتقنين فيه ، وهو من أشرف علومه - رحمه الله - فالحديث لم يتسوره الإمام ابن حزم بدون معلم، وإنما سمع الحديث عن كثير من المشائخ ذكر بعضهم الإمام الذهبي في السير (٤)، وقد شهد له بالإجادة في هذا الفن والمعرفة بالصحيح والضعيف .

يقول فيه شيخ الإسلام ابن تيمية: "...وله من التمييز بين الصحيح والضعيف ، والمعرفة بأقوال السلف ما لا يكاد يقع مثله لغيره من الفقهاء" (٥). وقال فيه الحافظ الذهبي "ولى أنا ميل إلي أبي محمد لمحبتة في الحديث الصحيح ومعرفته به ، وإن كنت لا أوافقه في كثير مما يقوله في الرجال والعلل (٦) ، وقال فيه الإمام ابن حجر "أنه كان واسع الحفظ جداً . فسماه بالحافظ وقد سمى بعض من روى عنهم الإمام ابن حزم ، ومن رَوَوْا عنه ، وفسر ما وقع فيه الإمام من أوهام شنيعة في التعديل والتجريح وأسماء الرواة بأن ذلك لثقة حافظته ، فكان يهجم على القول في ذلك" (٧).

(١) انظر المحلى ٣٤٥/٧.

(٢) انظر المحلى ١٦٣/١١.

(٣) انظر المحلى (٤٠٦/٧ ، ٤٨٢) (١٥٨/١١).

(٤) انظر السير ١٨٤/١٨ وما بعدها .

(٥) انظر مجموع الفتاوى ٢٠/٤.

(٦) السير (٢٠١/١٨ ، ٢٠٢).

(٧) انظر لسان الميزان ٢٢٩/٤.

المطلب الثاني

تقريره بأن خبر الواحد موجب للعلم والعمل معاً

تعريف خبر الآحاد عند المحدثين : هو الخبر الذي يرويه واحد أو اثنان أو أكثر في كل طبقة من طبقات السند ، وليس شرطه أن يرويه رجل واحد في كل طبقة ، وإنما الشرط ألا يبلغ حد التواتر (١).

يقول الإمام ابن حزم عن خبر الآحاد الذي نقله الواحد عن الواحد "إذا اتصل برواية العدول إلي رسول الله ﷺ وجب العمل به ، ووجوب العمل بصحته" (٢).

فكلام الإمام ابن حزم هنا ذو شقين :

الأول : وجوب العمل بخبر الآحاد وبناء الأحكام الشرعية عليه .

الثاني : حصول اليقين به ، ووجوب العلم بما تضمنه .

فالشق الأول : فهو من الحقائق الجليلة والأصول العظيمة التي اجتمع عليها أئمة السلف والخلف ، فقد نقل ابن عبد البر إجماع أهل الحديث والأثر على قبول خبر الواحد وإيجاب العمل به إذا ثبت ولم ينسخه غيره من أثر أو إجماع ، لم يشذ عن ذلك إلا الخوارج وطائفة من أهل البدع (٣).

فالشق الثاني : وهو القول بأن خبر الآحاد يوجب العلم اليقيني فقد ذكر ابن عبد البر أنه قول كثير من أهل الأثر وبعض أهل النظر (٤).
وأما أكثر أهل العلم فقد ذهبوا إلي أنه يوجب العمل دون العلم ، وعزاه ابن عبد البر إلي جمهور أهل العلم ورجحه (٥).

على أن أكثر أهل الفقه والأثر مع قولهم بأن خبر الآحاد لا يوجب العلم القطعي إلا إنهم لا يمنعون الاستدلال بخبر الواحد في تقرير العقائد ، يقول ابن عبد البر

(١) انظر نزهة النظر شرح نخبة الفكر لابن حجر (١٤ - ٢٢).

(٢) انظر الإحكام ١/١٠٨.

(٣) انظر التمهيد لما في الموطأ في المعاني والأسانيد لابن عبد البر (٢/١).

(٤) المصدر السابق ٨/١.

(٥) المصدر السابق ٧/١.

فيما يحكيه عنهم: "وكلهم يدين بخبر الواحد العدل في الاعتقادات ، ويعادي ويوالي عليها ، ويجعلها شرعاً وديناً في معتقده على ذلك جماعة أهل السنة" (١).

وهذه الكلمة فيها فصل النزاع في هذا الباب ، حيث ذهب أكثر أهل الكلام إلي أن خبر الآحاد لا يقبل في العقائد لأنه ظني الثبوت وقولهم يحتاج إلي مناقشة مبسطة (٢) ، وقد خالفهم أكثر أهل الفقه والأثر كما حكاه ابن عبد البر هاهنا ، وهو على إحاطة بأقوال أهل العلم ، وله أمانة في النقل .

ولما رأى بعض أهل العلم خطر مقولة المتكلمين ، حيث يتأسس عليها رد ما لا ينحصر من الأحاديث الصحيحة قرروا في أصولهم أن خبر الآحاد يفيد اليقين ، وإنما مرادهم إبطال ما ادعاه أهل الكلام من أنه ليس حجة في الاعتقادات.

والذي يبدو ويظهر أن القول بظنية خبر الآحاد لا ينافي الأخذ به في العقائد والأصول ، وأن الأمر بخلاف ما عليه أهل الكلام من أنه ليس حجة في العقائد ، وبخلاف ما عليه الفريق الآخر من أنه قطعي الثبوت ، ويكفي في تقرير ذلك أن نحيل إلي ما نقله ابن عبد البر فيما أوردناه عن أكثر أهل العلم فقد نقل أمرين:

الأول : أن خبر الآحاد ظني يوجب العمل دون العلم .

الثاني : أن خبر الآحاد حجة في الاعتقادات .

هذا تقرير المسألة من جهة المنقول عن أئمة السلف ، وأما تقرير المسألة من جهة البرهان العقلي والشرعي فذلك بالنظر إلي خبر الآحاد من جهتين:

الأولى : من جهة الثبوت نفسه ، وليس هناك إشكال عقلي في أنه ظني الثبوت لأن الراوي الثقة الحافظ وارد عليه الخطأ بمقتضى بشريته ، وعليه فمن قال بأن خبر الآحاد يقيني في نفسه فقد خالف الواقع .

الثانية : هي جهة الاحتجاج ، وقد جاء الشرع بجواز الاحتجاج بخبر الواحد كما ورد في وقائع كثيرة أن الرسول ﷺ أرسل أفراداً من الصحابة وأحياناً رجلاً واحداً ليبلغ الدين عقائده ، وعباداته ، وأخلاقه ، واعتبر ذلك كافياً في إقامة الحجة على من بلغهم ، بالإضافة إلي أدلة كثيرة تبين أن الشرع أوجب قبول خبر الواحد في الأصول والفروع دون تفريق بينهما (٣).

(١) انظر التمهيد لما في الموطأ في المعاني والأسانيد لابن عبد البر ٨/١.

(٢) انظر بسط المناقشة في مذكرة في أصول الفقه للشنقيطي ص ١٠٤ وما بعدها وقد توسع الشيخ الألباني في رد شبه المتكلمين وغيرهم في رسالته (وجوب الأخذ بحديث الآحاد في العقيدة).

(٣) انظر في ذكر هذه الأدلة وجوب الأخذ بحديث الآحاد في العقيدة للشيخ محمد ناصر الدين الألباني ، فقد ذكر عشرين وجهاً للاستدلال على ذلك .

وغني عن البيان هنا أن نذكر أن الإمام ابن حزم يرى أن خبر الآحاد حجة في العقائد ، وهو يقرر هذا بوضوح حيث يرى "أن كل ما نقله الثقة عن الثقة مبلغاً إلى رسول الله ﷺ من قرآن أو سنة ففرض قبوله والإقرار به والتصديق به واعتقاده والتدين به(١).

فالذي تطمئن له النفس أن بحث الإمام ابن حزم في هذه المسألة بحث علمي نقي دائر مع الدليل الشرعي ، قائم على البديهيات العقلية ، مع ما فيه من تعظيم السنة النبوية والذود عنها ، حتى أن أدلته فيه هي عمدة من جاء بعده ممن وافقه على قوله(٢).

(١) انظر الإحكام ١١/١١٣.

(٢) البحث المذكور في كتابه الإحكام ١١٢/١ - ١٣٩.

المطلب الثالث

إصراره بأن أدلة الحق لا تتناقض

الأدلة الشرعية لا تتناقض ولا يضرب بعضها بعض فهذا مبدأ أصيل وعقيدة لا محيد عنها في كتب إمامنا .

قرر الإمام ابن حزم قاعدة كلية جازمة وهي أن البرهان لا يعارضه برهان ، فلو جاز ذلك لكان الحق في المتضادين ، فهذا باطل بيقين(١).

فنجده يبين هذه القاعدة أكثر بقوله "وحجة العقل لا تبطل حجة العقل أصلاً ، بل توجبها وتصححها ، وكذلك من رام إبطال خبر الواحد فإنه لا يجد أبداً خبراً صحيحاً يبطل خير الواحد ، وهكذا كل شيء صحيح فإنه لا يوجد شيء صحيح يعارضه أبداً ، هذا يعلم ضرورة ، ولو كان ذلك لكان يبطل الحق(٢).

يستفاد من هذا أن العقل الصحيح لا يناقضه عقل صحيح والنقل الصحيح من كتاب أو سنة لا ينقضه نقل صحيح ، وليس بين كل من العقل الصحيح والنقل الصحيح تناقض أو تعارض ، إذا الكل حق ، والحق لا يتعارض وإنما يتعاقد . فهو في هذه الخاصية يلتقي بشيخ الإسلام ابن تيمية ، وإن كان شيخ الإسلام أوسع بياناً لها وأشد تقريراً .

(١) انظر الإحكام ٥١٩/٨.

(٢) المرجع السابق ١٩٦/٧.

المبحث الثالث

المنهجية الجادة

وفيه خمسة مطالب

المطلب الأول : اهتمامه بالدليل العقلي

المطلب الثاني : الثبات وقوة الدليل

المطلب الثالث : إحكامه للمسألة ثم تطبيقها وعدم

مخالفتها

المطلب الرابع : رفضه للتقليد بجميع صوره

المطلب الخامس : فهمه للموضوعية

المطلب الأول

اهتمامه بالدليل العقلي

مما يؤكد عناية الإمام ابن حزم بالبرهان العقلي أنه صدر كتاب الأحكام بباب كامل في إثبات حجج العقول (١) ، وكذلك كتابه الفصل (٢) ، فقد صدره بباب جامع في ماهية البراهين الجامعة الموصلة إلى معرفة الحق في كل ما اختلف فيه الناس وكيفية إقامتها ، فضلاً عن كتابه المفرد في هذا الباب "التقريب لحد المنطق". فالإمام ابن حزم قد اتسمت طريقته في الاستدلال المعقولية والإقناع الذهني الذي يصلح لعامة الناس وخاصتهم ، حيث مبناه على البديهيات والمسلمات الفطرية التي لا يماري فيها أحد (٣).

فأسلوبه سهل بسيط ليس فيه أدنى تعقيد ، وهو ينتقل من المقدمات البسيطة إلى التي تليها بصورة سلسلة تنتهي في كثير من الأحيان إلى التسليم بما يقرره راجع في ذلك ما سلكه في حقيقة الخبر المتواتر (٤).

فهذه أحد الأسباب التي مكنت له رغم قسوة عبارته وغرابة آرائه بالنسبة إلى المذاهب الذائعة التي عليها جمهور المسلمين .

وفي مناقشته لقوم من أهل الملة يبطلون حجج العقول ويصححون حجج القرآن يستدل عليهم بالآيات التي فيها الأمر باستعمال دلائل العقل والحواس كقوله تعالى (وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ) (٥).

وبالآيات التي تادم من لم يستعمل دلائل العقل والحواس كقوله تعالى (وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ) (٦).

ولعل هذه المعقولية وراء ما اتسم به فكره الأصولي من الاتساق والتنظيم ، وعدم التناقض ، فأصوله لا تتصادم وإنما يتمم بعضها بعضاً ويؤكد كده .

(١) فقد صدر له في الباب الثالث من الأحكام ١٧/١ - ٣١.

(٢) انظر الفصل في الملل والنحل ١٣/١ - ١٧.

(٣) المصدر السابق ونفس الصفحة .

(٤) الأحكام ١٠٩/١ - ١١٢.

(٥) سورة الملك الآية ٢٣.

(٦) سورة الملك الآية ١٠ .

المطلب الثاني

الثبات وقوة الدليل

الإمام ابن حزم - رحمه الله - كان قوياً في منهجه واستدلّاله ، ثابتاً لم تنزل له الأعاصير عما يقرره فهو كالطود الشامخ ، وهذه الخاصية من المشهورات التي أجمع عليها معاصروه واشتهرت عند المتقدمين والمتأخرين ، فلا يعوزنا إقامة الدليل عليها ، فقد كان الإمام ابن حزم قوياً في دعوته ، ثابتاً على مذهبه ، صامداً أمام المد الكاسح من المخالفين والمناوئين ، لا يبالي أحداً ولا يهاب إنساناً إذا ما بدأ له أن الحق فيما هو عليه ، بل إنه يشتت في جرأته التي غلفتها حدة في الطبع وغلظة في القول ، حتى قيل "كان لسان الإمام ابن حزم وسيف الحجاج شقيقين" (١).

ومن مظاهر ثباته وقوته: شدة اعتداده برأيه وثقته في صحة مذهبه ، ومما يبين هذه الخصلة قوله: "...لأننا - ولله الحمد - أهل التخليص والبحث ، وقطع العمر في طلب تصحيح الحجة ، واعتقاد الأدلة قبل اعتقاد مدلولها ، حتى وفقنا - ولله تعالى الحمد - على ما تلج اليقين ، وتركنا أهل الجهل والتقليد في ريبهم يترددون" (٢).

وكان يقول في تقريره لرأيه وهذا هو القول الصحيح الذي لا يجوز غيره (٣) ، ومما يتصل بصفة القوة والجرأة تلك الحرية البالغة التي تحلى بها الإمام ابن حزم في بحوثه ودراساته ، فقد كان ذا جرأة وإقدام في التعامل مع الأدلة ، واستخراج الأحكام منها ، وتأسيس أصوله ومقرراته ، ومناقشة المخالفين ، وإيراد الشبه عليهم ، بحيث كان يفتق أدلة لم يسبق إليها ويشق طريقاً في بحثه لم يتقدمه فيها إمام.

ومن مظاهر صفة الثبات عند الإمام ابن حزم أنه دائم التكرار والتنبيه لما يقرره فقد وجدناه يكرر مسائل مخصوصة وعبارات بعينها ، فمن ذلك :

أولاً : ذمه للتقليد وهذا كثير شائع في الأحكام ، يذكره كلما وجد مناسبة ، ولا يكتفي بما أورده في بابه الخاص حيث أنه ذكر حجة من أهم حججه في إبطال التقليد في باب لا يتصور ورودها فيه وهو باب الإجماع (٤).

ثانياً : نقد الاحتجاج بعمل أهل المدينة : وهو نفسه يشير إلى أنه تكلم في هذه المسألة في غير موضع (١) ، فهو واعى بهذا التكرار وتعمد له .

(١) انظر سير أعلام النبلاء ١٩٩/١٨ وقائل العبارة هو أبو العباس ابن العريف .

(٢) انظر الأحكام ٢٤/١ .

(٣) انظر الأحكام ٤٥٣/٤ .

(٤) انظر الأحكام ٥٣٥/٤ .

ثالثاً : عباراته الأثيرة كل دعوى عريت من برهان فهي ساقطة فقد وردت هذه العبارة باختلافات يسيرة(٢).

رابعاً : تعبيره عن تناقض المخالفين - وغالباً ما يقصد المالكين والأحناف - بقوله "...لأن القوم إنما حسبهم ما نصرؤا به المسألة التي بين أيديهم فقط ، وأن هدموا بذلك سائر مسائلهم"(٣).

خامساً : عبارته الذائعة في المحلى التي يصدر بها قوله بعد إيراد أقوال الأئمة في المسألة وهي قوله "فلما اختلفوا كما ذكرنا وجب أن ينظر فيما احتجت به كل طائفة".

والحق أن صفة التكرار غالباً ما يوصف بها أصحاب الدعوات الكبار من رواد التجديد والإصلاح ، الذين يمهدون الطريق ويثبتون الدعائم ، حيث لابد من تشية القول وإعادته لتقرير الفكرة وتأكيد الرأي ، لئلا يؤخذ مأخذ القول العابر.

ولقد تجلت صفة الثبات على أقوى ما يكون في سفره الضخم المحلى فإن كل ما أصله الإمام ابن حزم في إحكامه رأيناه حياً نابضاً في "محلاه" فهو لم يفارق أصوله ، ولا تخلى عنها قط في أي موضع من موسوعته على مدى ثمان وثلاثمائة وألفي مسألة هي مجموع ما حواه المحلى .

ولكن الذي لا نقره عليه في هذا المقام عباراته الجافية لمخالفيه الذين احتجوا على وجوب التقليد فقال "المحتج بهذا إما كان بمنزلة الحمير في الجهل ، وإما كان رقيق الدين لا يستحي ولا يتقي الله عز وجل(٤).

وكثيراً ما يتكلم في حق الفقهاء عموماً من أصحاب المذهب بكلام عظيم ، بل قد يطول بكلامه بعض الأئمة أنفسهم ، وقد بلغت به جرأته أن تناول بكلامه بعض الصحابة أنفسهم ، فهو يضرب المثال للعالم الذي يترك النص لما وقع في نفسه من أن راوي الخبر لم يحفظ وأنه فهم يضرب المثل بفعل عمر رضي الله عنه في خبر فاطمة بنت قيس رضي الله عنها ، وفعل عائشة رضي الله عنها "في خبر الميت يعذب بيكاء أهله" ثم يقول معلقاً "وهذا ظني ولا معنى له ، إذا أطلق بطلت الأخبار كلها"(٥)، وهذا مما طاش به سهمه ، وزلت به قدمه ، فإن هؤلاء الأكابر لا

(١) انظر الإحكام ٢٢٧/٦.

(٢) انظر الإحكام ١١٠/١ ، ١٥٤/١ ، ١٢٥/٢ ، ٣٦٢/٧.

(٣) انظر الإحكام ١٤٨/٢ ، ١٧٨/٢ ، ٣٤٦/٣.

(٤) انظر المحلى ١٩٥/٩ ، ٩٦/٢ ، ١٦٥/١١.

(٥) انظر الإحكام ٢٠١/٢.

يخاطبون بمثل هذا ، ونعتذر له بأن مقصوده التعليق على عموم هذا المسلك في رد الحديث لا خصوص فعل هذين الصحابييين ، وإن كان الواجب على كل حال هو لزوم الأدب وتحري حسن المنطق في مخاطبة الصحابة الكرام ، خاصة أكابرهم وقد كان من نتاج وقوعه في أئمة الاجتهاد بأفج عبارة ، وإطلاقه لسانه واستخفافه بالكبار - أنه امتحن وشدد عليه ، وشرذ عن وطنه ، وجرت له أمور ، وقام عليه الفقهاء" (١).

فحرية الإمام ابن حزم وجرأته أمر غير مذموم في ذاته ، إذا لم تكن حرية الأرعن المتقحم لما لا يحسنه بلا زمام وخطام ، وإنما هي حرية الوثائق الذي استوفى عدد البحث وتدفع بآلات النظر ، ولهذا لم يؤت الإمام ابن حزم في هذا الباب مما شذ منه ، وإنما أتي من جهات أخرى ليس منها القصور العلمي ، وقد ذكر الحافظ الذهبي "أن الإمام ابن حزم فيه أدوات الاجتهاد كاملة" (٢).
وذهب العلامة أبو زهرة إلي أنه مجتهد مطلق (٣).

(١) انظر تذكرة الحفاظ ١١٥٤/٣.

(٢) تذكرة الحفاظ ١١٥٣/٣.

(٣) انظر ابن حزم حياته عصره وآراؤه وفقهه لأبي زهرة ص ٣٠٩.

المطلب الثالث

إحكامه للمسألة ثم تطبيقها وعدم مخالفتها

من ينظر إلي تأليف الإمام ابن حزم يتبين له ذلك بأدنى نظر ، فلم يكن - رحمه الله - يتكلم في أصول الفقه إلا بما يعتقد اعتقاداً جازماً ، ويعمل به ويدعو إليه ، فلا جرم كان ما فصله في "المحلى" و"الفصل" انعكاساً صادقاً لما أصله في "الإحكام" و"النبد" فضلاً عما شاع في كتبه الأصولية نفسها من أمثلة كثيرة توضح القاعدة وتؤكددها ، ومن أمثلة ذلك أنه عقد فصلاً مخصوصاً أورد فيه عشرات الأمثلة الفقهية التي دلل فيها أن القائلين بالقياس قد تناقضوا فيها (١) ، ويطول بنا المقام لو ذهبنا نستقصي أمثلة هذا الباب ، ويكفي إجمالاً أن نشير إلي أن الإمام ابن حزم التزم في كتاب المحلى على سبيل المثال بكل أصوله الفقهية من البرهنة على المسائل، وتصحيح المنقول، وتعظيم النصوص، الاحتجاج بخبر الواحد، ورفض التقليد ، وترك القياس ، والأخذ بالظاهر ، وغير ذلك من أصول .

والحق أن كتب الأصول في أمس الحاجة إلي هذه السمة المنهجية الجليلة ، ولا بد من الإشارة إلي أن قيمة ما اختطه الإمام ابن حزم من المؤاخاة بين النظرية والتطبيق تظهر عندما تقرأ عن الأصوليين الذين يخلطون الكلام في الأصول بعلم الكلام تارة ، وبالنحو تارة ، وبالفقه تارة .

وتتجلى تلك الأهمية أكثر إذا نظرنا إلي أكثر كتب الأصوليين التي كان بين مقرراتها النظرية وواقع أصحابها العملي بون شاسع ، فبينما هم في أصولهم النظرية يرسمون طريق الاجتهاد ، والتعامل مع النصوص إذا هم في فروعهم العملية يسيرون في طريق التقليد والمذهبية ، فما الحاجة إلي الأصول إذا وأين هؤلاء من الإمام ابن حزم في اجتهاده ونظره في الأدلة في ضوء الأصول التي اعتقدها وقعدها ؟ وهذا ما استذكره الذهبي عليهم حيث قال: "ولا فائدة في أصول الفقه إلا أن يصير محصله مجتهداً به ، فإذا عرفه ولم يفك تقليد إمامه لم يصنع شيئاً" (٢) فالإمام ابن حزم كان عظيم الإخلاص للأصول التي يتبناها ، حفيماً بها كل الحفاوة، فمن آثار

(١) انظر الإحكام ٤٨/٨ - ٧٦.

(٢) انظر زغل العلم للإمام الذهبي ص ٤١ تحقيق محمد بن ناصر العجمي .

هذا الإخلاص أن أصوله كانت حية ملموسة في جميع مواقع بحثه ، حيث قام عليها على المستوى النظري والتطبيقي معاً ، ولم يجاف بين المستويين ، كيف لا وهو لا يتكلم إلا فيما وراء عمل ، فليس في أصوله الفقهية ما يوصف بأنه جامد ، أو عقيم أو شكلي أو تجريدي مما كثر في كتب الأصوليين وبخاصة المتكلمين .

المطلب الرابع

رفضه للتقليد بجميع صورهِ

ذكر الإمام ابن حزم في كتابه "النبد" والتقليد حرام ، ولا يحل لأحد أن يأخذ بقول أحد بلا برهان(١).

وذكر - رحمه الله - في كتابه الأحكام: "فالتقليد حرام على العبد المجلوب من بلده ، والعامي والعذراء المخدرة ، والراعي في شغف الجبال ، كما هو حرام على المتبحر ، ولا فرق"(٢) هكذا حسم الإمام ابن حزم المسألة وعمم الحكم على جميع الطوائف وجميع أحكام الدين ، ومن الواضح أنه جازم في رأيه لا تردد عنده ولا تراجع ، ومن يراجع أدلته ومناقشته المطولة لا يبقى عنده شك في ذلك.

وإذا أردنا البيان على هذا القول نراجع كتابه الأحكام فقد استوفى كلامه في هذا الباب في أكثر من مائة وعشرين صفحة متصلة(٣) بخلاف ما تناثر في أبواب الكتاب الأخرى .

ويقرر الإمام ابن حزم بأن المجتهد المخطئ أعظم أجراً من المقلد المصيب وأفضل(٤) ، وفي كلامه عن المجتهد المخاطي أفضل يبرهن على ما ذهب إليه براهين قوية في ذاتها ، كعادته في الحجاج: فهو يقرر أن الإجماع منعقد على أن أحداً من الصحابة لم يقلد صحابياً أكبر منه في جميع قوله كما يفعل أصحاب المذاهب مع أنمتهم ، حيث يأخذون جميع أقوالهم ولو خالفت الكتاب والسنة صراحة ، وكذلك لا يشك أحد من أهل العلم أن هذا لم يفعله تابعي مع تابعي أكبر منه أو صحابي ، وأن هذا لم يحصل من أهل القرن الثالث مع من سبقهم من الصحابة والتابعين .

ويقول رحمه الله "فالتقليد حرام في جميع الشرائع أولها عن آخرها ، من التوحيد ، والنبوة ، والقدر ، والإيمان ، والوعيد ، والإمامة ، والمفاضلة وجميع العبادات والأحكام"(٥).

فهذا عنده إجماع متيقن في ثلاثة أعيان هي خير القرون ، فكيف يحل لأحد أن يقلد أبا حنيفة وحده ، أو مالكا أو الشافعي ، فهذا عمل محدث عنده مخالف للإجماع الصحيح .

(١) النبد في أصول الفقه الظاهري بتعليق محمد زاهر الكوثري .

(٢) الأحكام ٦ - ٢٢٧.

(٣) انظر الأحكام ٦/٢٢٧ - ٢٩٤.

(٤) الأحكام ٦/٢٢٧.

(٥) المرجع السابق ٦/٢٣٠.

وقد انتقد الإمام ابن حزم فيما ذهب إليه كثير من أهل العلم يقول أحدهم(١) رأي الظاهرية في التقليد ، قلة تبصر في عواقب ما يرون ، وفيه تعطيل المصالح الدنيوية كلها يحمل الأمة على ما لا قبل لعامتهم به ، بل المنصوص المتوارث أن يجري العالم على ما يعلم ، وأن يسأل غير العالم العالم (فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ)(٢) ، وقد انبرى الشيخ أبو زهرة مناقشاً وراًداً على الكوثري ، مدافعاً عن الإمام ابن حزم في فكرته عن التقليد وهو كلام مرسل غير مرتب نستخرج منه هذه الأوجه اعتماداً على نصوص الإمام ابن حزم .

الوجه الأول : أن كلام الكوثري فيه إقرار للظاهرية على أن من كان عنده أداة الاجتهاد لا يجوز له التقليد ، حيث اعترض في شأن العامي فحسب .

الوجه الثاني : أن الإمام ابن حزم لا يوجب على العامي التفريغ لتعرف أحكام دينه مما يترتب عليه تعطيل مصالح العمران ، وإنما الممنوع عنده في حق العامي أمران: **الأول :** أن يقلد إماماً بعينه في جميع مذهبه ، كأنه هو المشرع ، مع أن شرع الله هو الكتاب والسنة .

الثاني : أن يقبل فتوى من غيره من غير أن يسندها إلي كتاب الله أو سنة رسوله ﷺ أو يقرر مفتيه أن ذلك حكم الله ، فإن قال مفتيه ذلك قبل قوله ، وإن قال له : لا ، أو سكت ، أو انتهره ، أو ذكر له قول إنسان غير الرسول ﷺ تركه وسأل غيره.(٣)

الوجه الثالث : أن الإمام ابن حزم جعل العامي مراتب كما صرح هو نفسه: فمن زاد فهمه زاد اجتهاده ، وأدنى المراتب أن يسأل عن كون هذا هو حكم الله ، فإن زاد سأل عن نص الحديث ، فإن علا سأل عن السند ، فإن ترقى سأل عن أقول العلماء.(٤)

الوجه الرابع : أن كلام الإمام ابن حزم في تحريم التقليد على العامة والخاصة ليس معناه أن العامي هو الذي يستتبط الأحكام من الأدلة نفسه ، إذ لا أهلية له وإنما الذي يلزمه هو الأمران المذكوران هنا ، وليس في هذا تكليف بما ليس في طاقته ، ولا فيه تعطيل للمصالح كما ادعاه الكوثري ، وإنما دعا الإمام ابن حزم إلي أن يتوسط بين العامي وبين دين الله وسائط من قول إمام واعتباره ديناً وهذا كما يقول

(١) الشيخ محمد بن زاهر الكوثري في تعليقه على النبذ ص ٥٤.

(٢) سورة النحل الآية ٤٣

(٣) انظر الأحكام ١٥٢/٦

(٤) انظر كلام ابن حزم في النبذ ص ١٥٢/٥٦.

الإمام ابن حزم "لا يعجز عنه أحد وأن بلغ الغاية في جهله" (١) وهو يقول في قوله تعالى (فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ) (٢).

وهذا نص على أنه لا يلزم أحداً من البحث على ما نزل به في الديانة إلا بقدر ما يستطيع فقط. (٣)

وكان أحد المحققين العلماء (٤) قد أول كلام الإمام ابن حزم في تحريم التقليد وذم المقلدين تأويلاً سائغاً ووجهه توجيهاً مناسباً حيث بين - رحمه الله - أن ما ذمه الإمام ابن حزم من التقليد "إنما يتم فيمن له ضرب من الاجتهاد ولو في مسألة واحدة ، وفيمن ظهر عليه ظهوراً بيناً أن النبي ﷺ أمر بكذا ونهى عن كذا ، وأنه ليس بمنسوخ إما بأن يتبع الأحاديث وأقوال المخالف والموافق في المسألة فلا يجد لها نسخاً ، أو بأن يري جماعاً غفيراً من المتبحرين في العلم يذهبون إليه ، ويرى المخالف لا يحتج بقياس أو استنباط أو نحو ذلك فحينئذ لا سبب لمخالفة حديث النبي ﷺ الإنفاق خفي أو جلي أو حمق جلي .

فإذا كان هذا الفريق هو الذي يصح فيه كلام الإمام ابن حزم في التقليد كما يرى الدهلوي ، فإن كلام الإمام ابن حزم لا يصح في فريق آخر أو بعبارة الدهلوي "ليس محله فيمن لا يدين إلا بقول النبي ﷺ ، ولا يعتقد حلالاً إلا ما أحله الله ورسوله ، ولا حراماً إلا ما حرمه الله ورسوله ، ولكن لما لم يكن له علم بما قاله النبي ﷺ ، ولا بطريق الجمع بين المختلفان من كلامه ، ولا بطريق الاستنباط من كلامه إتبع عالماً راشداً على أنه مصيب فيما يقول ويفتي ظاهراً متبع سنة رسول الله ﷺ فإن خالف ما يظنه أقلع من ساعته من غير إصرار ، فهذا كيف ينكره أحد ، مع أن الاستفتاء والإفتاء لم يزل بين المسلمين من عهد النبي ﷺ ، ولا فرق بين أن يستفتي هذا دائماً أو يستفتي هذا حيناً وذلك حيناً ، بعد أن يكون مجمعاً على ما ذكرنا". (٥) وفي نهاية هذا الفصل لابد من التعقيب على ما ذهب إليه أبو زهرة من أن الفرق ليس كبيراً بين الإمام ابن حزم وبين العلماء الذين أجازوا التقليد بل أوجبوه على العامة ولا يكون الفرق جوهرياً. (٦)

(١) الأحكام ١٥٢/٦.

(٢) سورة التغابن الآية ١٦.

(٣) الأحكام ٦.

(٤) هو العلامة المحقق الإمام ولي الله أحمد بن عبد الرحيم الدهلوي / في كتابه حجة الله البالغة ١/١٥٥.

(٥) حجة الله البالغة للإمام ولي الله أحمد بن عبد الرحيم الدهلوي ١/١٥٦.

(٦) ابن حزم حياته وعصره آراؤه وفقهه ص ٣٠٨.

فيكفي من الفروق الكبيرة الجوهرية بين الإمام ابن حزم وبين هؤلاء أنه لم يجعل العامة طبقة واحدة بل جعلهم طبقات كثيرة يتفاوت حظهم من الاجتهاد بحسب فهمهم ، وهذا يدفع الكسل والاستئمان في التعامل مع أحكام الشريعة ، حيث يكلف كل إنسان بحسب ما أوتي من الفهم لدينه ، في حين يرى هؤلاء أن العامة سواء في أنهم يقلدون ، وحسبك بهذا فرقاً ، مع فروق كثيرة تتجلى في الأوجه السابقة التي ذكرناها من كلام أبي زهرة نفسه .

المطلب الخامس

فهمه للموضوعية

هذا المصطلح صار شائعاً لكثرة تداوله بين الباحثين ، فمصطلح الموضوعية ليس من مصطلحاتنا معشر المسلمين ، ثم لا يسلم من ضلال من الريبة ، إذ يطلق للدلالة على المنهج أو الأسلوب المجرد عن المؤثرات الذاتية بما فيها المؤثرات الدينية والاعتقادية ، فمفهوم الموضوعية منبثق من الأساس العلماني الذي قام على النهج الغربي الذي عنه أخذنا هذا المصطلح . فهذا المصطلح قاصر ، وأن مصطلحات المسلمين : الأمانة والإنصاف ، والصدق والعدالة فهي تؤدي المعنى الصحيح وزيادة^(١).

هذه نقطة محيرة تواجه الدارس لهذه الشخصية الفذة ، ولعل الإمام أبا زهرة نفسه على تعمقه في دراسة الإمام ابن حزم قد انتابه شيء من ذلك ، فبينما يصف منهاج الإمام ابن حزم بقوله: "كان في الجملة مخلصاً في طلبه الحق ، ولا يبتغي بجدله الغلب المجرد - إنما كان يقصد طلب الحق لذات الحق في نظره، وتحرير القول في دين الله"^(٢). يعود فيصفه بأنه "لم يكن في جدله أو مناظراته ينظر إلى المسألة نظرة موضوعية - فنظره دائماً في جدله هو النظر المتحيز لا نظر الباحث الفاحص"^(٣).

وقد سبق له كلام عن إخلاص الإمام ابن حزم في طلب الحق وإخلاصه في دعوته طالباً رضا الله وحده غير آبه بسخط الناس^(٤).

وكذلك نجد الازدواج في الموقف من الإمام ابن حزم عند الدكتور عبد المجيد تركي فهو يقرر في فقرة واحدة أنه "دائم البحث عن الحقيقة الموضوعية" ويقول أنه "علامة قدير ولكنه متحيز"^(٥).

والتفسير لموقف الإمام أبي زهرة والدكتور تركي هو أن مسلك الإمام ابن حزم يحتمل أن يوصف بكلا الوصفين: الموضوعية والتحيز معاً فكلاً النعتين على تناقضهما له ما يدعمه في مواقف الإمام ابن حزم ودراساته ، ولكن الإمام ابن حزم يغلب عليه الموضوعية وطلب الحق ، وذلك هو الذي يحسه الباحث المتأمل في موقف الإمام ابن حزم من ذات المسائل والقضايا التي يتناولها ، فهو منصف للقضية التي بين

(١) انظر منهج كتابة التاريخ الإسلامي للدكتور محمد بن صامل السلمي ص ١٤٨ وما بعدها .

(٢) لابن زهرة .

(٣) المصدر السابق ٢٠٧ .

(٤) المصدر السابق ٧٨ - ٨١ .

(٥) مناظرات في أصول الشريعة د. عبد المجيد تركي ص ٥٩ .

يديه ، موضوعي في التعامل معها سواء أصاب الحق أم أخطأ - وهذا أقصى ما يقصده بالبحث الموضوعي ، بل هو شديد الوفاء لما يتناوله من قضايا العلم ، وهذا ما حدا بالإمام أبو زهرة أن يصفه بأنه "مخلصاً في طلبه الحق".

وقد رمى إلي هذا الإمام الذهبي وهو يصف الإمام ابن حزم "يتحرى الصدق" (١)، ووصفه بأن مقاصده جميلة (٢).

على أن الإمام ابن حزم مع إنصافه للقضية لم يكن منصفاً للمخالف ، حيث كان شديد مع المخالفين ، قاسياً في عبارته ، يقع في أئمة الاجتهاد ، يقول الذهبي: "بأفج عبارة وأفظل محاورة وأبشع رد" (٣) ، وهذا موضع الإشكال وسبب رميته بالتعصب والتحيز .

والحق أن الجدة مهما بلغت وحطت من صاحبها فليست بالضرورة علامة على التحيز ، نعم كثيراً ما يقتربنا ، ولكن ليس حكماً مطرداً ، فإذا وجد في الرجل الحاد ما يدل على أنه يتحرى الحق وظهر أن لحدته أسباباً أخرى غير التعصب والميل - كان الإنصاف ألا نخلط بين النعتين ، حيث قد انتفى التلازم بينهما ، فابن حزم - رحمه الله - هو هذا الرجل ، حيث شهد له الباحثون بالصدق في مبعاه ومسلكه ، وفي الوقت نفسه وجدنا لحدته وعداوته على المخالف تفسيراً آخرأ هو أوجه من تفسيرها بالتحجر والتحيز ، ويتلخص ذلك في أن مبعث شدته أربعة أسباب:

الأول : "جبلي" فقد كانت طبيعة الإمام ابن حزم نفسه تتسم بالحدة والشدّة،

وقد عللها العلامة أبو زهرة إلي سببين:

أ/ أحدهما : كيد خصومه وإرادتهم السوء له .

ب/ ثانيهما : المرض العضوي الذي أصاب الإمام ابن حزم فولد الحدة في طبعه كما ذكر هو عن نفسه (٤) ، يقول - رحمه الله - "ولقد أصابتني علة شديدة ولدت علي ربواً في الطحال شديداً ، فولد ذلك على من الضجر ، وضيق الخلق ، وقلة الصبر، والنزف ، أمراً حاسبت نفسي فيه ، إذ أنكرت تبدل خلقي ، واشتد عجبي من مفارقتي لطبعي ، وصح عندي أن الطحال هو موضع القرع ، فإذا فسد تولد ضده" (٥).

(١) انظر تذكرة الحفاظ ١١٤٦/٣ .

(٢) السير ١٨٧/١٨ .

(٣) انظر تذكرة الحفاظ ١١٥٤ .

(٤) انظر ابن حزم حياته عصره وآراؤه وفقهه لأبي زهرة ٨١ .

(٥) كتاب الأخلاق والسير أو رسالة في مداواة النفوس لابن حزم ص ١٦٢ ، ١٦٣ .

الثاني : "اجتماعي" فقد كان التفرد المنهجي الذي شذ به الإمام ابن حزم عن المجتمع العلمي الذي عاصره سبباً في وقوع الشر بينه وبين معاصريه وطبيعي أن تكون الجفوة والنفرة هي الأغلب على ذلك الجو المتواتر والعلاقات غير الودية بينه وبين مخالفيه .

الثالث : "منهجي" فإن الإمام ابن حزم يرى أنه لا يجوز أن يستدل إلا باليقين المطلق ، ولم يجوز الاستدلال بالظن الراجح كما هو عليه أكثر أهل العلم ، وقد تأسس على هذا أنه لم يجعل مساحة للخطأ في الرأي ، إذ إن اليقين لا يُنقص ، فكيف لرجل يعتقد هذا الاعتقاد أن يقول لمخالفيه : أنا على صواب يحتمل الخطأ بينما لا احتمال عنده للخطأ أصلاً ، وهذه النقطة المنهجية من أهم ما يزيل الإشكال في قضية الموضوعية عند الإمام ابن حزم ، إذ إن قلة اعتداده بآراء المخالفين هي مسألة منهج يحتذيه ، وليس جموداً أو تعصباً لآرائه .

الرابع : وهو ما يرجع إلي الحياة العلمية في بيئة الإمام ابن حزم ، حيث غلب على مخالفيه صفتان:

الأولى : ضعف الآلة العلمية مقارنة بابن حزم .

الثانية : ضعف القدرة على الاستدلال والمناظرة ، فالعلماء في زمانه لم يكن في مقدورهم إقامة الحجة على رجل في سعة علم الإمام ابن حزم وقوة عارضته ، وليس تسويغاً للحدة التي وصف بها الإمام ابن حزم ، بل هي من أشد الأسباب التي مكنت منه الخصوم ، واستحق لأجلها اللوم ، وهي مسلك مرفوض علمياً وخلقياً ، ولكن الغرض هنا هو بيان أن الخلوص من وصفه بالشدة إلي القول بعدم موضوعيته هو رأي مجافٍ للحقيقة ليس عليه دليل صحيح .

وإذا طلبونا بالدليل الذي يوضح مدى إدراكه لحقيقة الموضوعية فهناك الدليل من كتاب الإحكام يقول - رحمه الله - "...لأننا - ولله الحمد والمنة - أهل التخليص والبحث ، وقطع العمر في طلب تصحيح الحجة ، واعتقاد الأدلة قبل اعتقاد مدلولاتها... وكذلك نقول فيما لم يصح عندنا حتى الآن ، فنقول مجدين مقرين : إن وجدنا ما هو أهدى منه اتبعناه وتركنا ما نحن عليه (١) ، ورغم أنه عاد فاستدرك بأن هذا هو في النصوص المتعارضة في الظاهر التي لم يعلم فيها الناسخ من المنسوخ ، وفي الأحاديث التي قد يبلغهم ثباتها بعد أن لم تكن ثابتة عندهم ، وأن هذا في أقوالهم قليل جداً ، وأما سائر مذاهبهم فهم منها على غاية اليقين .

(١) انظر الإحكام ٢٤/١ ، ٢٥ .

رغم هذا الاستدراك الذي ينبع عن فكرة اليقينية التي ذكرناها في حديثه إلا إن كلامه ينم عن وعي بضرورة التجرد في البحث وتقديم الدليل على المدلول على خلافه ، وهنا أهم ما يقصد بالموضوعية بل هو لبها وجوهرها .

ومن الأمثلة التي فيها انعكاس الموضوعية في المسألة التي صاغها في قول من قال: "لا يؤاخذ الله عبداً بأول ذنب" فقد أورد فيه نصوصاً ثلاثة لأبي بكر وعمر وعلي رضي الله عنهم في أن الله ما أخذ عبداً عند أول ذنب ، وقد ضعف الإسنادين عن أبي بكر وعلي رضي الله عنهما بالإرسال ، ثم قال والإسناد عن عمر صحيح ، والله الأمر من قبل ومن بعد (١)، وهنا موضوعية الإمام ابن حزم المنصفة في أن الإمام ابن حزم قد قال بغير ما قالوه رضي الله عنهم ، ولما لم يجد وجهاً للطعن في قول عمر رضي الله عنه لم يسعه إلا الإقرار بصحته مع أنه ضعف الروايتين عن أبي بكر وعلي رضي الله عنهم ، ولو أراد لأعفى عن رواية عمر فلم يوردها أصلاً ، ولكنه منصف للقضية التي يطرحها ، متوخ الصدق والأمانة في عرضه لها .

(١) المحلى ١١/١٥٨.

المبحث الرابع

إتقانه للبحوث النافعة

وفيه مطلبان

المطلب الأول : ندرة مسلك المتكلمين في بحوثه

الأصولية

المطلب الثاني : تركه للبحوث الخالية من المنفعة

والعمل

المطلب الأول

ندرة مسلك المتكلمين في بحوثه الأصولية

علم الأصول يدور بين ثلاثة مدارس:

المدرسة الأولى : المتكلمة الشافعية

المدرسة الثانية : فقهاء الأحناف

المدرسة الثالثة : الطريق الوسط

فهذا أمر محسوس لدى كل من يقرأ في الكتب الأصولية التي صنف ، ولكن إذا تصفحت كتاب الإحكام تجده بعيد كل البعد عن مدرسة المتكلمين فإذا قارنته مع هذه المدرسة تجد أن البون شاسع وبعيداً جداً حتى لكأن كلاهما يتناول علماً مختلفاً عن الآخر. وهذا يدل على أن الأصوليين لم يهتموا بكتاب الإحكام . وإن كنا نقول بأن الكتاب فيه جفوة في مخاطبة الخصوم لكن نجده بعيد عن الروح التي أشربتها كتب الأصول : من صبغة عقلية كلامية وترسيخ للتقليد والمذهبية ، وضعف اعتناء بالأدلة النصية .

والحق أن تأثر علم الأصول بعلم الكلام مع ظهوره وتمكنه آفة عظيمة من آفات كتب الأصول ، وبيان خطر هذه الآفة هو من الأمور التي يجب التنبيه عليها وإذا رجعنا إلي موضوعنا فنجد أن الإمام ابن حزم إذا تفقدنا كتابه الأصولي الإحكام فلا تجد فيه أثراً يذكر من الآثار المذمومة لعلم الكلام سواء في مضمون الكتاب ومادته أو في صياغته الأسلوبية الاستدلالية ، فإذا أخذنا مثلاً:

الصياغة : فعبارة الإمام ابن حزم مبينة مباشرة ، قريبة المأخذ ، بعيدة عن الإعضال ، بخلاف أسلوب أهل الكلام الذي هو على نقیض هذه الصفات ، ثم إن منهج الإمام ابن حزم في الاستدلال مع ما فيه من عقلانية ظاهرة التي كانت قريبة من الفطرة ، مخاطبة لكل العقول ، معتمدة على الاصطلاحات اللغوية التي يعرفها عامة المتخاطبين باللغة ، بخلاف عقلانية المتكلمين التي تتصف بالالتواء ، والتعقيد والتطويل الذي يشوش على الفهم ولا يناسب إلا المختصين الذين أنفقوا زمناً طويلاً في معناه كتب الكلام ، خاصة أنهم يستعملون لغة اصطلاحية تختلف عن اللغة العامة ، فابن حزم عظيم الإتياع للنصوص العقلية ، وهذه صفة تباعد بينه وبين طريقة المتكلمين .

وثانياً : المادة : فقد كانت مادته بعيدة عن نسبتها إلي علم الكلام إلا في

موضعين :

الأول : في كيفية ظهور اللغات وهو الباب الرابع من الكتاب .

الثاني : بحث في هل الأشياء في العقل قبل ورود الشرع على الحظر أم على

الإباحة ؟ وهو الباب السادس من الكتاب .

وهذان الموضوعان لا يشكلان نسبة في كتاب ضخم مثل الإحكام فلا تكاد

المادة الكلامية فيهما تتجاوز بضع عشرة صفحة ، فكم تكون نسبتها في ألف

ومائتين صفحة ؟

المطلب الثاني

تركه للمباحث الأصولية الخالية من المنفعة والعمل

نجد الإمام ابن حزم قد حرص في كتبه الأصولية على أن تكون موادها محققة للغاية من علم الأصول ، وهي تهيئة المتفقه للتعامل مع الأدلة ، والاجتهاد في استخراج الأحكام الشرعية ، وقد كان صادقاً في تحري هذا الغرض ، فلم يدع نفسه نهياً للمباحث الشكلية العقيمة غير المنتجة التي زحمت بها كتب الأصول ، فنجد كتابه الإحكام قوي التأثير فيمن يدرسه ، حيث يأخذ بيد القارئ ويوصله إلى مقاصد الكتاب من أقصر طريق ، وهذا لا ينفي أن الإمام ابن حزم وقع له بعض المسائل التي ليس وراءها عمل ، وذلك كمسألة مبدأ اللغات في الباب السابق ، ومسألة نسخ الشيء قبل أن يعمل به ولكن الحكم للغالب .

ولم يكن الإمام ابن حزم يترك المباحث الشكلية لمجرد انشغاله بتقرير مذهبه وحرصه على الدعوة إلى أصوله بظن ، وإنما الذي يظهر أنه يقصد ذلك قصداً ، ومما يدل على ذلك أنه عقد فصلاً في نسخ الشيء قبل أن يعمل به فقال في مطلعته وأكثر المتقدمين في هذا الفصل وما ندري أن لطالب الفقه حاجة ولكن ما تكلموا الزمنا بيان الحق في ذلك بحول الله وقوته ، والصحيح من ذلك : أن النسخ بعد العمل به وقبل العمل به ، جائز كل ذلك ، وقد نسخ الله تعالى عنا إيجابه خمسة وأربعين صلاة في كل يوم وليلة ، قبل أن يعمل بها أحد .

ومن جعل هذا بداء فقد جعل النسخ بداءً ولا فرق ، وكل ما أدخلوه في نسخ الشيء قبل أن يعمل به راجع عليهم في نسخه بعد أن يعمل به ولا فرق والله تعالى يفعل ما يشاء ، والذي نقدر أن الذي حداهم إلى الكلام في هذه المسألة مذهبهم الفاسد في المصالح ، ونحن لا نقول بها ، بل نفوض الأمر إلى الله عز وجل يفعل ما يشاء ، ليس عليه زمام ، ولا له متعقب (١).

ونجده بعد ذلك يعقب بقوله " ولكن ما تكلموا لزماننا بيان الحق في ذلك بحول الله وقوته .

وهذا لا ينفي المبدأ الذي قرره ، حيث يجد المتأمل في أبواب الكتاب أنه أسقط بالفعل كثيراً مما لا حاجة لطالب الفقه إليه .

(١) انظر الإحكام ٤/٤٩٩ - ٥٠٠.